

موسوعة المملكة العربية السعودية

Encyclopedia of Saudi Arabia

المجلد الثاني

منطقة مكة المكرمة

(١)

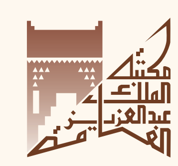



مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٤٢٨هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مجموعة مؤلفين
موسوعة المملكة العربية السعودية ./ منطقة مكة المكرمة: الجزء الأول/
مجموعة مؤلفين .- الرياض، ١٤٢٨هـ.
٢٠ مج.
ردمك: ٨ - ٦٣- ٧٠٨ - ٩٩٦٠- ٩٧٨ (مجموعة)
٢-٦٥-٧٠٨-٩٩٦٠-٩٧٨ (ج ٢)

١- السعودية - موسوعات أ. العنوان
ديوي ٩٥٣,١٠٠٣ ١٤٢٨/٧٩٩٩

رقم الإيداع: ١٤٢٨/٧٩٩٩
ردمك: ٨- ٦٣- ٧٠٨ - ٩٩٦٠- ٩٧٨ (مجموعة)
٢-٦٥-٧٠٨-٩٩٦٠-٩٧٨ (ج ٢)



مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض
المملكة العربية السعودية
ص ب ٨٦٤٨٦ الرياض ١١٦٢٢
هاتف: ٩٦٦١٤٩١٩٢٦٥ + فاكس: ٩٦٦١٤٩١٩٣٣٧ +
الموقع الإلكتروني: www.kapl.org.sa


بسم الله الرحمن الرحيم

التطوّر التاريخي

رئيس اللجنة العلمية

أ.د. محمد بن سليمان الخضيري
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

المستكتبون

أ.د. سعيد بن فايز السعيد
أستاذ اللغات والحضارات القديمة بجامعة الملك سعود

أ.د. عبدالرحمن بن علي السنيدي
أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

د. محمد بن علي عسيري
أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

د. عبدالرحمن بن مديرس المديرس
أستاذ التاريخ المساعد بجامعة الملك سعود

أ.د. عبداللطيف بن عبدالله بن دهيش
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بجامعة أم القرى

د. عبدالرحمن بن سعد العرابي
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المساعد بجامعة الملك عبدالعزيز

التحكيم العلمي

أ.د. عمر بن صالح العُمري
أستاذ التاريخ الحديث بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

أ.د. إبراهيم بن محمد المزيني
أستاذ الحضارة الإسلامية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

د. حميد بن إبراهيم المزروع
أستاذ علم الآثار القديمة المشارك بجامعة الملك سعود

الباب الثاني

التطوُّر التاريخي

الفصل الأول

عصر ما قبل الإسلام

أولاً بدايات الاستيطان
ثانياً صلة الأنبياء والرسل بمكة المكرمة
ثالثاً نزاع القبائل
رابعاً عمارة الكعبة المشرفة
خامساً أبرز مراكز الاستيطان
سادساً تطور التجارة
سابعاً الأسواق
ثامناً الأحوال العامة وقت ولادة المصطفى ﷺ

إعداد
الأستاذ الدكتور سعيد بن فايز السعيد
أستاذ اللغات والحضارات القديمة

يكاد يجمع الباحثون في تاريخ العرب القديم على أن الاسم (Macoraba) (مكورابا) الذي جاء ذكره في كتاب الجغرافي اليوناني بطليموس[١] هو تصحيف لاسم مكة المكرمة، ويرى جواد علي[٢] في هذه الإشارة دلالة على اتساع ذكر مكة المكرمة منذ بواكير الألف الأول للميلاد بوصفها مدينة مقدسة ومركزاً تجارياً حتى وصلت إلى آفاق بعيدة. وقد تفاوتت آراء الدارسين حول معنى اسم (مكورابا)؛ فقد قيل إنه من أصل آرامي، كما قيل إنه تصحيف للكلمة العربية (مقرب) بمعنى (البيت)؛ نظراً لوجود البيت الحرام بها، وعدَّه بعضهم مشتقاً من كلمة (مكة) البابلية التي تعني (البيت) أيضاً، أو من كلمة (م ك رب) الواردة في عدد من النقوش السبئية بمعنى (بيت، وحرم، ومكان مقدس)[٣]، أو أنه على علاقة بكلمة (مكت) المصرية القديمة[٤] التي تعني (الحمى)، أما الإضافة الصوتية الملحقة بالاسم الأصلي لدى بطليموس فهي بين أحد تفسيرين: إما أن تكون بمعنى (مكة الرب) وإما (مكة العرب).

وعلى الرغم من تعدد الآراء حيال دلالة الاسم، إلا أن المرجح أن الاسم (مكورابا) مشتق من الجذر العربي القديم كرب الذي يفيد معنى (شدّ، ووثق، وجمع) في لغة النقوش العربية الجنوبية القديمة[٥].

جاء اسم (مكة) في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾[٦]، كما ورد الاسم بالباء؛ أي (بكة)، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[٧]، وقيل في هذا التبادل بين حرفي الميم والباء في الاسم: إن (مكة) هي تسمية أشمل يقصد بها الوادي كله، في حين أن (بكة) تشير إلى موضع البيت الحرام منه على وجه التحديد. وأشار القرآن الكريم إلى مكة بعدة تسميات أخرى، أهمها: (أم القرى) ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾[٨]، و(البلد) ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾[٩]، و(البلد الأمين) ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴾[١٠]، و(البلدة) ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[١١] وغيرها، وهناك كثير من الأسماء الأخرى الخاصة بمكة المكرمة أوردتها المصادر العربية على مر العصور، مثل: المكّتان (نسبة إلى بطن مكة المكرمة وظاهرها)، والمقدسة، والوادي، ونادرة، ومنونة، وسبوحة، وقرية الحمس (وهم أهل قريش المقيمون في الحرم)، والعرش، والبلد الحرام، والحاطمة، وأم زحم، وأم صبح، وغير ذلك كثير[١٢].

أولاً ـ بدايات الاستيطان:

ارتبط ذكر هبوط آدم عليه السلام على الأرض بمنطقة مكة المكرمة على أكثر من وجه، فلقد ورد في الأثر أنه أهبط بين مكة المكرمة والطائف أو على جبل الصفا[١٣]، في حين قيل كذلك باحتمالية وجود قبره في أحد أخشبي مكة المكرمة، وتحديداً في الأخشب الشرقي أو جبل أبي قبيس شرقي الصفا[١٤]، وهو ذلك الجبل الذي كانت له مكانة كبرى في الجاهلية، إذ كان أحد مواضع التنسك والاعتكاف، ودعي كذلك بالأمين لما روي من أن الحجر الأسود كان مستودعاً فيه حتى حين[١٥].

(١) جغرافي يوناني عاش في القرن الثاني الميلادي؛ انظر: Nobbe, C. F. (ed) Ptolemy , Geography, Leipzig: 1843,1845 Vol. 7,320.

(٢) جواد علي، *المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام*. ط٣، (بغداد: مكتبة النهضة، ١٩٨٠م)، جـ٤، ٩، ١٠.

(٣) ألفرد بيستون، وآخرون، *المعجم السبئي*، (بيروت: ١٩٨٢م)، ٧٨.

(٤) عبدالعزيز صالح، *تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة*، (القاهرة: مكتبة الأنجلو، ١٩٨٨م)، ١٩٨، ١٩٩.

(٥) سعيد فايز السعيد، *العلاقات الحضارية بين الجزيرة العربية ومصر في ضوء النقوش العربية القديمة*، (الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢٤هـ)، ٢٥.

(٦) الفتح، الآية: ٢٤.

(٧) آل عمران، الآية: ٩٦.

(٨) الأنعام، الآية: ٩٢.

(٩) البلد، الآيتان: ١، ٢؛ وانظر: إبراهيم، الآية: ٣٥.

(١٠) التين، الآية: ٣.

(١١) النمل، الآية: ٩١.

(١٢) أحمد رجب محمد علي، *المسجد الحرام بمكة المكرمة ورسومه في الفن الإسلامي*. ط٢، (القاهرة: ٢٠٠٠م)، ١٤؛ عواطف أديب سلامة، *قريش قبل الإسلام: دورها السياسي والاقتصادي والديني*، (الرياض: دار المريخ، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م)، ٢٢، ٢٣.

(١٣) فؤاد علي رضا، *أم القرى مكة المكرمة*، (بيروت: مؤسسة المعارف، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ٢٩ ـ ٣١.

(١٤) سلامة، عواطف أديب. قريش قبل الإسلام: دورها السياسي والاقتصادي والديني، مرجع سابق، ١٧.

(١٥) علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق، جـ٤، ٧، ٨.

وورد في الأثر كذلك أن منطقة عرفة[١] كانت هي المكان الذي أخذ فيه الله سبحانه وتعالى الميثاق الوارد ذكره في القرآن الكريم من ذرية آدم من ظهره ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾[٢]، كما جاء أيضاً أن الله سبحانه وتعالى أمر آدم عليه السلام بأن يبني له بيتاً على الأرض[٣]، وأن يشرع بالطواف به، كما تطوف الملائكة حول العرش، وأرسل إليه من الملائكة من حدد له موضع البيت الحرام على الأرض، وعلّمه مناسك الحج[٤].

تميزت منطقة مكة المكرمة في عصورها القديمة بمظاهر طبوغرافية متنوعة تراوح بين السهول والأودية الجارية والجبال، كما تمتعت أيضاً بمواسم أمطار وفيرة، ما انعكس على الغطاء النباتي للمنطقة آنذاك، وأسهم في جعلها مصدر جذب للإنسان والحيوان خلال تلك العصور المبكرة، إذ تؤكد الدراسات الأثرية الحديثة أن المنطقة شهدت منذ أقدم العصور استيطاناً مبكراً لجماعات سكانية كبيرة نسبياً، مارست أنشطة حياتية ومهارات صناعية متنوعة دلت عليها بقايا أدواتهم الحجرية منذ ما يزيد على ربع مليون عام مضت[٥]. ويعد موقع وادي فاطمة بالقرب من ساحل البحر الأحمر بجوار جدة، وموقع جبل العرفاء في الطائف، وكذلك الجبال المطلة على منطقة بحرة[٦]، من أبرز المواقع الدالة على وجود استيطان جماعي في المنطقة منذ ما يقرب من ٢٥٠,٠٠٠ عام قبل الوقت الحاضر[٧].

وتدل الأدوات الحجرية التي عثر عليها في تلك المواقع على اعتماد الجماعات التي كانت تسكنها على صيد البحر وطعامه من ضمن أنظمتها الغذائية، وكذلك ممارسة الأنشطة الحياتية والمهارات اليدوية والأشغال البدائية باستخدام الخشب والعظم[٨].

ويطرح العثور على بعض الأدوات التي تعود إلى الصناعة الألدوانية في شمال المملكة وجنوبها[٩] قضية هجرة بعض سلالات الإنسان القديم من منطقة أخدود أولدفاي في تنزانيا وشرق إفريقية إلى القارات الأخرى.

ويتجه كثير من الآراء إلى أن الإنسان في هجرته تلك قد سلك طريقين: أولهما عبر النيل حتى سيناء ومنه إلى شمال الجزيرة العربية، والآخر عبر مضيق باب المندب إلى جنوب الجزيرة العربية[١٠]، ثم منه شمالاً. وإذا كانت الأدوات الألدوانية من منطقة الشويحطية قرب سكاكا في شمال المملكة تعطي دلائل على الطريق الأول، فإن نوعية الأدوات نفسها من نجران في الجنوب تعطي الدلائل على المسار الثاني. وفي ضوء ذلك لا يستبعد أن إنسان هذه المرحلة قد توقف واستوطن بعض مواقع المنطقة الغربية من المملكة بين نجران وسكاكا في رحلته إلى الشمال، خصوصاً أن ظروفها البيئية والمناخية تيسر له ذلك. وثمة احتمال كبير أن تكون منطقة وادي فاطمة من بينها، وبوجه عام فإن منطقة وادي فاطمة تعد سجلاً لمسيرة استيطانية بشرية مستمرة، فهي تحتوي على اثنين وثلاثين موقعاً آشولياً، وأربعة مواقع موستيرية، وموقع واحد يعود تاريخه إلى بدايات العصر الحجري الحديث، وبضعة مواقع أخرى للنقوش الصخرية تنتمي إلى العصر الحجري الحديث نفسه[١١].

واستمر الاستيطان متواتراً في الجزء الغربي من المملكة بعامة، إذ تشير أعمال

(١) رضا، فؤاد علي. أم القرى مكة المكرمة، مرجع سابق، ٣٠، ٣١.

(٢) الأعراف، الآية: ١٧٢.

(٣) محمد علي، أحمد رجب. المسجد الحرام بمكة المكرمة ورسومه في الفن الإسلامي، مرجع سابق، ١٧، ١٨.

(٤) رضا، فؤاد علي. أم القرى مكة المكرمة، مرجع سابق، ٣١.

(٥) سعد الراشد، وآخرون، *آثار منطقة مكة المكرمة*، (الرياض: إدارة الآثار والمتاحف، ١٤٢٤هـ)، ٣٢.

(٦) المرجع السابق، ٧٦ ـ ٨٠.

(٧) المقصود بهذا التحديد الزمني قبل النصف الأخير من القرن العشرين الميلادي.

(٨) م. نورمان، وآخرون، «مجموعة من المواقع في جدة ووادي فاطمة»، *أطلال*، إدارة الآثار والمتاحف، ع١١، (الرياض: ١٤٠٩ هـ/١٩٨٨م)، ٩٨ ـ ١٠٠.

(٩) عباس سيد أحمد محمد علي، «ما قبل التاريخ في الجزيرة العربية»، *الدارة*، دارة الملك عبدالعزيز، س٢٦، ع٣، (الرياض: ١٤٢١ هـ/٢٠٠٠م)، ٩٥، ٩٦.

(١٠) المرجع السابق، ١١٩، ١٢٠.

(١١) حسن عثمان سندي، «الدراسات الجيولوجية الآثارية للعديد من المواقع في منطقة جدة: وادي فاطمة»، *أطلال*، إدارة الآثار والمتاحف، ع١١، (الرياض: ١٤٠٩ هـ/١٩٨٨م)، ١١١، ١١٢.



أدوات حجرية من وادي فاطمة[*]

المسح الأثري في منطقة مكة المكرمة إلى العثور على أربعة عشر موقعاً، في وادي فاطمة وفي حرتي شما والجموم[١]، وفي بعض المواقع الأثرية الأخرى في بحرة وجدة[٢]، اتسمت أدواتها بطابع الصناعة الموستيرية المميزة لمرحلة العصر الحجري القديم الأوسط التي تنتهي تقريباً قبل ٤٠,٠٠٠ عام من الوقت الحاضر[٣]، وتتميز بصناعة الشظايا والمحكات الحجرية[٤] واستخدام التقنية المسماة بالليفلوازية (شظايا مشطورة قرصية الشكل مسننة الأطراف تشبه ظهر السلحفاة).

أما ما يخص مرحلة العصر الحجري القديم الأسفل بين نحو ٤٠٠٠٠ و١٠٠٠٠ قبل الوقت الحاضر، فإن الدراسات الآثارية التي أجريت في المنطقة الغربية من المملكة ـ حتى الآن ـ وفي وادي فاطمة على وجه الخصوص، لم تكشف أدلة كافية يمكن أن يستدل منها على حضارة إنسان هذه الفترة الزمنية[٥].

وتميز العصر الحجري الحديث في منطقة مكة المكرمة، خصوصاً المرحلة المتأخرة منه ـ أي من الألف الخامس وحتى الألف الثالث قبل الميلاد ـ بكثرة معثوراته ووضوح معالمها. وتشتمل معثورات هذا العصر على عدد من الأدوات الميكروليثية (القزمية) بعامة، مثل النصال والشفرات الرفيعة، فضلاً عن أحجار الرَّحيِّ وبقايا بيض النعام الذي كان يستخدم للتخزين آنذاك. ولعل من أبرز ما يميز هذه الفترة من العصر الحجري الحديث هو ظهور نمط من الأبنية والمنشآت الحجرية ذات الاستخدامات المتنوعة[٦]، يتجاوز عددها المئات، وقد أقيمت فوق سفوح الجبال أو أعلى مدرجات الأودية، وذلك على امتداد المنطقة بكاملها من تبوك شمالاً حتى مرتفعات عسير ومنخفضات غربي نجران جنوباً. ولا ريب في أن العثور على هذا النوع من المنشآت الحجرية في منطقة مكة المكرمة يشكل دليلاً واضحاً على تواصل الاستيطان في المنطقة خلال الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد[٧]، كما يستدل من بقايا المعثورات الأثرية العائدة إلى تلك الفترة على أن السكان كانوا ـ آنذاك ـ

(١) الراشد، سعد، وآخرون. آثار منطقة مكة المكرمة، مرجع سابق، ٧٩.

(٢) وكالة الآثار والمتاحف، *مقدمة عن آثار المملكة العربية السعودية*. ط٢، (الرياض: ١٤٢٠ هـ/١٩٩٩م)، ٥٠.

(٣) يوسف مختار الأمين، «العصور الحجرية في المملكة العربية السعودية: دراسة تقويمية»، *أدوماتو*، مؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية، ع٨، (الجوف: ١٤٢٤ هـ/٢٠٠٣م)، ٢٢.

(٤) الراشد، سعد، وآخرون. آثار منطقة مكة المكرمة، مرجع سابق، ٧٩، ٨٠.

(٥) نورمان، م.، وآخرون، «مجموعة من المواقع»، *أطلال*، مرجع سابق، ع١١، ١٠١، ١٠٢.

(٦) سيد أنيس هاشم، «دراسة نشوء وتطور المدافن الركامية القديمة في الجزيرة العربية: المملكة العربية السعودية»، *أطلال*، وكالة الآثار والمتاحف، ع١٤، (الرياض: ١٤١٦ هـ/١٩٩٦م)، ٨٣ ـ ٩٨.

(٧) الراشد، سعد، وآخرون. آثار منطقة مكة المكرمة، مرجع سابق، ٨٠، ٨١.

(*) المصدر: وكالة الآثار والمتاحف.

يعتمدون في تنمية اقتصادهم المعيشي على الرعي وتدجين بعض الحيوانات.

ومن السمات المميزة لمرحلة العصر الحجري الحديث في منطقة وادي فاطمة نفسها بعض الملتقطات السطحية من النصال الحجرية[١]. ولا شك في أن بعض المعثورات من المواد الفخارية الملونة وبقايا الأدوات النحاسية المتقنة ـ من موقع (سهي) في أقصى المنطقة الجنوبية الغربية للمملكة بالقرب من ساحل البحر الأحمر[٢]، والمؤرخة من النصف الأخير للألف الثاني قبل الميلاد ـ تعد قرينة على تميز معطيات الحياة وتنوعها في سهول المنطقة الغربية القريبة من ساحل البحر الأحمر بشكل عام في هذه الفترة، مما يعزز من أن مثل هذه المواقع قد يكشف عنها مستقبلاً في محيط منطقة مكة المكرمة، وخصوصاً أن المنطقة بتنوع بيئاتها مؤهلة لقيام حضارة مشابهة لتلك التي قامت في موقع (سهي) وغيره من المواقع في جنوب غرب المملكة، ولاسيما أن السهول الساحلية الواقعة غربي مكة المكرمة بعامة، وسهول وادي فاطمة بشكل خاص، تمتعت ـ آنذاك ـ بوفرة المياه حتى بعد أن خيم شبح الجفاف على المنطقة منذ أواسط العصر النيوليتي، فظلت مكاناً للاستيطان منذ أقدم مراحل ما قبل التاريخ وطوال ما تلا ذلك من عصور تاريخية.

وتدل الرسوم الصخرية المنتشرة في أمكنة مختلفة في المنطقة على ممارسة إنسان العصر الحجري الحديث حتى عصور قبيل الإسلام، الرعي والصيد، كما أنها تشير إلى نوع من التواصل والتفاعل بين سكان جنوب غرب الجزيرة العربية وسكان الصحراء الكبرى في إفريقية الشمالية[٣]، وهو ما يعكس مدى الاستيطان وتحركات المجموعات البشرية في الجزيرة العربية بعامة. كما تدل بعض الرسوم والنقوش التي عثر عليها على الوضعين البيئي والديني اللذين اتسم بهما سكان المنطقة[*].

ثانياً ـ صلة الأنبياء والرسل بمكة المكرمة:

يروى في الأثر أن أبناء آدم عليه السلام قد تولوا عمارة البيت بالرعاية من بعد أبيهم[٤]. كما ورد كذلك في بعض المصادر أن الله سبحانه وتعالى قد وجّه سفينة نوح إلى مكة المكرمة فطافت بموضع البيت الحرام أربعين يوماً، قبل أن ترسو على الجودي[٥]. كما تحدثت كتب التراث أيضاً عن صلة تربط إدريس عليه السلام بالبيت الحرام[٦]. وينسب كذلك إلى قوم عاد أنهم أقاموا في مكة المكرمة بجوار موضع البيت، في ضيافة سيد العماليق آنذاك ويدعى معاوية بن بكر، إذ قدموا يطلبون فرج الله سبحانه ويستسقونه، لأن المطر امتنع عنهم ثلاث سنين. وجاء في الأثر كذلك أن نبي الله صالحاً عليه السلام قد هجر الحِجْر (مدائن صالح) من بعد عقر العُصاة من قومه الثموديين للناقة، وهلاكهم بالصيحة، وأنه انتقل من بعد ذلك فجاور حرم البيت العتيق حتى توفاه الله[٧].

وكانت الهجرة الأولى لنبي الله إبراهيم عليه السلام من موطنه في بلاد الرافدين إلى فلسطين، حيث أقام هناك في سهل بمنطقة تدعى حبرون[٨] (الخليل حالياً)، ويرى عدد من الباحثين وفق رواية المصادر ذات الصلة أن هجرة إبراهيم تلك تمت مع بداية الألف الثاني قبل الميلاد[٩].

(١) علي، عباس، «ما قبل التاريخ في الجزيرة العربية»، الدارة، مرجع سابق، س٢٦،ع٣، ١١١.

(٢) الأمين، يوسف، «العصور الحجرية في المملكة»، أدوماتو، مرجع سابق، ع٨، ٣١ ـ ٣٥؛ علي، عباس،ما قبل التاريخ في الجزيرة العربية»، الدارة، مرجع سابق، س٢٦، ع٣، ١١١.

(٣) عفراء محمد الخطيب، «علاقات شمال إفريقية بالصحراء الكبرى وجنوب جزيرة العرب خلال العصور القديمة: الحيوانات المتوجة نموذجاً»، *أدوماتو*، مؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية، ع٧، (الجوف: ١٤٢٣ هـ/٢٠٠٣م)، ٤١، ٤٢.

(٤) علي، أحمد رجب. المسجد الحرام بمكة المكرمة ورسومه في الفن الإسلامي، مرجع سابق، ١٨.

(٥) رضا، فؤاد علي. أم القرى مكة المكرمة، مرجع سابق، ٤٢.

(٦) المرجع السابق، ٣٤ ـ ٣٧.

(٧) المرجع السابق، ٧١ ـ ٧٧.

(٨) الحافظ ابن كثير، *قصص الأنبياء*، مراجعة: خالد عبدالفتاح شبل أبوسليمان. ط١، (جدة: ١٤٢٢ هـ/٢٠٠٢م)، ١٥٤.

(٩) أحمد عبدالحميد يوسف، *مصر في القرآن والسنة*، (القاهرة: دار المعارف، سلسلة اقرأ رقم ٣٧٣، ١٩٧٣م)، ٢٣ ـ ٣٠.

(*) انظر: الباب الثالث، (الآثار والمواقع التاريخية): الفصل الأول.

لم يلبث نبي الله إبراهيم طويلاً حتى تحرك في هجرة ثانية إلى أرض مصر، من المرجح أنها كانت في زمن حكم الأسرة الثانية عشرة، أي خلال عصر الدولة الوسطى. وفي هذا الصدد تشير رواية التوراة إلى ما نصه: «وحدث جوع شديد في الأرض، فانحدر أبرام إلى مصر ليتغرب هناك، لأن الجوع في الأرض كان شديداً»[1]. وتشير الرواية إلى أن نبي الله إبراهيم حمل مع مطلع القرن العشرين قبل الميلاد[2] أم ولده هاجر مع ابنها الرضيع بعد ولادته بقليل من فلسطين الخضراء عبر مئات الكيلومترات من الصحارى الجرداء، ليسكنهما في وادٍ غير ذي زرع عند بيت الله المحرم في رحاب مكة المكرمة، استهلالاً لعمارة البيت وإقامة شعيرة الصلاة لرب البيت سبحانه، وشروعاً في عمران وادي مكة المكرمة[3]، بقبائل وبطون من الناس يقومون على خدمة البيت وشعائره، وتبشرة برزق وخير وفير من كل الثمرات تجبى إليه، ومقدمة لإسباغ الأمان والحماية الإلهية على هذا الحرم العظيم، فكان الدعاء ذو الأثر الخالد على لسان خليل الرحمن الذي ورد في عدد من المواضع من التنزيل العزيز، منها في قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡ﴾[7].

لم تكن إقامة نبي الله إبراهيم في مكة المكرمة دائمة، بل كان يغادرها ثم يعود إليها بين الفينة والأخرى، حتى بلغت زياراته لمكة المكرمة أربع مرات[8]. وحسب ما جاء في القرآن الكريم وما روته بعض المصادر[9]، أقام في المرة الأولى منها لفترة في مكة المكرمة، حتى بلغ ابنه معه السعي فأصبح غلاماً يافعاً، ثم كان الاختبار الصعب والبلاء المبين، امتثالاً وخضوعاً للأمر بذبح إسماعيل عليه السلام ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٩٩ رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠٠ فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ١٠١ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[10]. ولما استجاب كل من الأب الصابر والابن الطائع، كانت مشيئة الله سبحانه في فداء إسماعيل بذبح سمين وكبش فداء عظيم ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾[11]. وكانت منطقة منى مسرحاً لهذه الوقائع، ففيها حاول الشيطان أن يثني النَّبيَّين الكَريمَين عن تنفيذ الوحي، وكان ذلك تحديداً في مواضع الجمرات الحالية، وفي ذلك يروى أن جبل ثبير - وهو جبل كبير يقع في شرقي منى - هو البقعة المباركة التي هبط عليها كبش فداء إسماعيل عليه السلام من السماء[12].

أما الزيارتان الثانية والثالثة لخليل الرحمن إلى مكة المكرمة، فلقد كانتا فيما يبدو مروراً عابراً لزيارة موضع البيت الحرام والاطلاع على الأحوال من حوله، فضلاً عن تفقده لأحوال ابنه إسماعيل وأمور بيته ومعيشته، ولكن الوالد الكريم والابن الحليم لم يقدَّر لهما اللقاء فيهما، فقد كان إسماعيل عليه السلام في

(١) الإصحاح الثاني عشر، الآيات: ٩ - ٢٠.
(٢) ثمة آراء تذكر أن تاريخها كان في القرن التاسع عشر قبل الميلاد؛ انظر: محمد بيومي مهران، *دراسات في تاريخ العرب القديم*، (الإسكندرية: ١٩٧٧م)، ٣٩٧، ٣٩٨.
(٣) سلامة، عواطف. قريش قبل الإسلام، مرجع سابق، ١٦.
(٤) إبراهيم، الآية: ٣٧.
(٥) البقرة، الآية: ١٢٦.
(٦) القصص، الآية: ٥٧.
(٧) العنكبوت، الآية: ٦٧.
(٨) محمد بن عبدالله بن أحمد الأزرقي، *أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار*، تحقيق: رشدي الصالح ملحس. ط٧، (مكة المكرمة: دار الثقافة، ١٤١٥ هـ/١٩٩٥م)، ٥٧ - ٦٠.
(٩) صفي الرحمن المباركفوري، *الرحيق المختوم*، (الرياض: دار المؤيد، ١٤٢١ هـ)، ١٩، ٢٠.
(١٠) الصافات، الآيات: ٩٩ - ١٠٢.
(١١) الصافات، الآيات: ١٠٣ - ١٠٧.
(١٢) سلامة، عواطف. قريش قبل الإسلام، مرجع سابق، ١٨.

الحالين يقوم على شؤون له خارج بطحاء مكة المكرمة.

لقد كانت الرحلة الرابعة لإبراهيم عليه السلام هي أهم تلك الرحلات جميعها ففيها أقام عليه السلام لفترة، رفع خلالها مع ولده إسماعيل جدران البيت الحرام على القواعد الأولى وفقاً لما ورد في قوله عز وجل: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[1]، فقد أرشد الله سبحانه وتعالى النَّبيَّيْن الكَريمَين إلى مكان القواعد الأولى للبيت الحرام، كما كانت على زمن آدم عليه السلام، ليرفعا البناء الجديد عليها، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾[2].

لقد علا البناء في عمارة إبراهيم وابنه عليهما السلام للكعبة المشرفة، طبقاً لرواية الأزرقي[3]، إلى نحو ٩ أذرع، أي ما يقرب من خمسة أمتار، وكانت المسافة بين الحجر الأسود والركن الشامي نحو ٣٢ ذراعاً، وما بين الركن الشامي والركن الغربي ٢٠ ذراعاً، وما بين الغربي واليماني ٣١ ذراعاً، وما بين الركن اليماني والحجر الأسود ٢٠ ذراعاً. وبعد أن تم البناء دعا النبيان الكريمان ربهما سبحانه بأن ييسر لهما معرفة مناسك الحج﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[4]، ثم رفع خليل الرحمن بأمر من الله الأذان بالحج في الناس أجمعين ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾[5]، وكان ذلك مع أواسط القرن العشرين قبل الميلاد على وجه التقريب[6].

إن تلك الصلة الوثيقة لنبيي الله تعالى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بالبيت الحرام ومنطقة مكة المكرمة، تجعل من وجود صلات تربط أنبياء الله تعالى من بني إبراهيم عليه السلام - وهم إسحق عليه السلام ومن بعده يعقوب عليه السلام - بالبيت والكعبة المشرفة أمراً لا شك فيه. وتشير بعض الروايات إلى أن نبي الله إسماعيل عليه السلام قبل وفاته كان قد استخلف أخاه إسحق عليه السلام في شؤون البيت، وأن الأخير قد حضر إلى مكة المكرمة للحج وزيارة أخيه[7]. ويروى في الأثر أن نبي الله شعيباً عليه السلام قد قصد مكة المكرمة تاركاً مَدْيَن هو ومن آمن معه، من بعد أن أخذت الرجفة قومه أصحاب الأيكة، فأقاموا بها حتى قضوا فيها ودفنوا في موضع معلوم يقال إنه يقع غرب المسجد الحرام.

أما بالنسبة إلى موسى عليه السلام (كليم الله)، فقد ولد في مصر من نسل بني إسرائيل بعد هجرة الأسباط إلى مصر وإقامتهم فيها نحو أربعة قرون، وبلغ هناك مبلغ الرجولة، ثم غادرها بداية إلى مدين، إذ قضى فيها فترة تراوحت بين ثمانية وعشرة أعوام، صداقاً لزوجه، ثم غادرها ليتلقى النبوة ويؤيده الله بأخيه هارون فيتجه الاثنان بأمر منه سبحانه ليدعوا فرعون وقومه إلى عبادة الله وحده. ومن بعد خروج بني إسرائيل من مصر كان موسى عليه السلام يختلف إلى بعض مواضع في سيناء يتلقى فيها الوحي وألواح الهدى والرحمة من ربه سبحانه، إذ أمضى بعد ذلك في سيناء وجوارها شطراً من بداية الأربعين سنة التي قضى الله بها بالتيه على بني إسرائيل جزاء عبادة كثير منهم العجل واستجابتهم للفتنة التي دعاهم إليها السامري. وفي ضوء ذلك فالإمكانية

(١) البقرة، الآية: ١٢٧.

(٢) الحج، الآية: ٢٦.

(٣) نقلاً عن: علي، أحمد رجب. المسجد الحرام بمكة المكرمة ورسومه في الفن الإسلامي، مرجع سابق، ١٩.

(٤) البقرة، الآية: ١٢٨.

(٥) الحج، الآية: ٢٧

(٦) ثمة آراء أخرى تقول إن عمارة الكعبة على عهد إبراهيم الخليل كانت نحو عام ١٨٢٥ ق.م، أي بعد التاريخ الذي افترضناه بما يزيد على قرن من الزمان، راجع عن ذلك: مهران، محمد. دراسات في تاريخ العرب، مرجع سابق، ٣٩٧.

(٧) رضا، فؤاد علي. أم القرى مكة المكرمة، مرجع سابق، ١٠٩، ١١٠.

قائمة أنه في واحدة من هذه الفترات، سواء فترة إقامته في مدين أو فترة إقامته في سيناء تقع رحلة الحج التي قام بها موسى عليه السلام، والتي حدّث عنها النبي محمد ﷺ في حجة الوداع. وتجدر الإشارة إلى أنه لم يقصد مكة المكرمة من بعد موسى عليه السلام أحد من قومه، باستثناء ما يحتمل من زيارة سليمان عليه السلام للبيت[١].

ثالثاً ـ نزاع القبائل:

سكن مكة المكرمة قبل نزول إسماعيل عليه السلام وأمه هاجر أقوام من العرب العماليق على أغلب الروايات[٢]، وقيل في أصولهم إنهم من نسل عملاق بن أرفخشذ[٣] بن سام بن نوح عليه السلام[٤]. ويبدو أن بداية سكنى مكة المكرمة كانت فوق جبل أبي قبيس، بوصفه موضعاً مرتفعاً يشرف على بطحاء مكة المكرمة ولا خطر على قاطنيه من السيول التي كانت تلم بالمنطقة من آن إلى آخر[٥]، وقد سكنه بعض بني جرهم القحطانية في البداية، وهم أول البطون من القبائل الذين أووا إلى بطحاء مكة المكرمة من حول حرم البيت بعد تكشف موضع بئر زمزم المباركة للطفل إسماعيل وأمه هاجر.

وثمة رأي آخر في هذا الصدد، يقول إن الجراهمة لم يكونوا مقيمين فوق جبال مكة المكرمة أو بظاهرها، يلتمسون الكلأ الشحيح لرعيهم، حين هجرة إبراهيم عليه السلام بأهله إلى المكان، بل كانوا في طريق هجرتهم شمالاً نحو بلاد النهرين أو بلاد الشام التماساً للماء[٦]، وقد حمى الله سبحانه الوفد الصغير من أهل إبراهيم من سطوة الجرهميين به أو استئثارهم بالماء دونه[٧]، بل قذف في قلوبهم إجلال الأم الضعيفة وطفلها وإحلالهما المنزلة الكريمة بينهم، والاعتراف لهما بحقهما في الماء المبارك.

وهكذا نشأ إسماعيل عليه السلام بين الجرهميين عزيزاً كريماً، وأخذ عنهم لغتهم (العربية الجنوبية)[٨]، ثم أصبح شاباً بين ظهرانيهم، وغدا فيهم فارساً ونبَّالاً[٩] وصيَّاداً ذا بأسٍ شديد.

تزوج إسماعيل عليه السلام من جرهم مرتين[١٠]، ولم يطل به المقام كثيراً مع زوجته الأولى، واسمها ـ حسب رواية بعض المصادر ـ حرة بنت سعد بن عوف الجرهمي[١١]، وهي التي يروى أن أباه قد أمره بتطليقها، لنقص في خلقها ومروءتها، ثم تزوج بعدها زوجته الثانية واسمها (السيدة) وهي ابنة سيد جرهم مضاض بن عمرو[١٢]، وقد رزق منها أولاداً ذكوراً كثيرين[١٣]. وبعد وفاته عن عمر بلغ نحو ١٣٥ عاماً[١٤] ودفنه إلى جوار أمه في الحِجْر، ولِّي أمور البيت الحرام من بعده أول أبنائه ويدعى نابتاً[١٥]، ثم من بعده أخوه قيدار بن إسماعيل، وفي رواية أخرى قيل إن خليفة إسماعيل عليه السلام الأول كان ابنه قيدار ثم من بعده أخوه نابت بن إسماعيل[١٦].

وعلى أثر تزايد هجرة الجراهمة إلى أنحاء مكة المكرمة وتزايد نفوذهم، تمكنوا من الظفر بأمر ولاية مكة المكرمة[١٧]، وقد كان دافعهم إلى ذلك سعيهم للاستفادة والنفع من زوار البيت وأرباح تجارة مكة المكرمة الناشئة، فكانت السيادة الأولى فيهم على حرم البيت لسيد جرهم وصهر إسماعيل عليه السلام مضاض بن عمرو الجرهمي، كما كان لقبيلة قطور نصيب من هذا الأمر بزعامة سيدهم السميدع[١٨]، وإن ظلت للجرهميين اليد العليا عليهم، بينما ظلت

(١) رضا، فؤاد علي. أم القرى مكة المكرمة، مرجع سابق، ١٢٣ـ ١٢٩.

(٢) علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق، جـ٤، ١٢، ١٣.

(٣) وبعض ما قيل في ذلك أيضاً إنهم من نسل عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام؛ انظر: رضا، فؤاد علي. أم القرى مكة المكرمة، مرجع سابق، ٧٢.

(٤) حسبما ورد في المصادر التوراتية؛ انظر: صالح، عبدالعزيز. تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة، مرجع سابق، ٢٠.

(٥) علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق، جـ٤، ٧، ٨.

(٦) رضا، فؤاد علي. أم القرى مكة المكرمة، مرجع سابق، ١٠٤.

(٧) الأزرقي، محمد بن عبدالله بن أحمد. أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، مرجع سابق، ٥٧.

(٨) علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق، جـ٤، ١٣.

(٩) وردت بعض الأحاديث النبوية في ترويضه عليه السلام للخيل، كما روي أن إبراهيم عليه السلام عندما قدم إلى البيت في إحدى زياراته وجد إسماعيل عليه السلام يصلح نباله؛ انظر: الأزرقي، محمد بن عبدالله بن أحمد. أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، مرجع سابق، ٥٩.

(١٠) الراشد، سعد، وآخرون. آثار منطقة مكة المكرمة، مرجع سابق، ٥٠، ٥١.

(١١) علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق، جـ٤، ١٣، ١٤.

(١٢) الأزرقي، محمد بن عبدالله بن أحمد. أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، مرجع سابق، ٧٧.

(١٣) يقال إنهم اثنا عشر ولداً ذكراً؛ انظر: رضا، فؤاد علي. أم القرى مكة المكرمة، مرجع سابق، ١٠٩.

(١٤) مهران، محمد. دراسات في تاريخ العرب، مرجع سابق، ٣٩٧، ٣٩٨.

(١٥) الراشد، سعد، وآخرون. آثار منطقة مكة المكرمة، مرجع سابق، ٥٢؛ صالح، عبدالعزيز. تاريخ شبه الجزيرة العربية، مرجع سابق، ١٩٩، ٢٠٠.

(١٦) المباركفوري، صفي الرحمن. الرحيق المختوم، مرجع سابق، ٢٧، ٢٨.

(١٧) محمد علي مختار، «الأزرقي المؤرخ من خلال رواياته»، *مصادر تاريخ الجزيرة العربية (١)*، (الرياض: جامعة الملك سعود، ١٣٩٩ هـ)، ٢٠١.

(١٨) علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق، جـ٤، ١٣.

لبني إسماعيل ـ آنذاك ـ مكانة بين القوم دون الحكم والزعامة.

ومع مرور الوقت اغترت جرهم بالثراء الذي نالها من التجارة التي كان يسوقها عمَّار البيت والنذور التي كان يحملها زواره[١]، فطغت وتجبرت على غيرها من قبائل العرب[٢]، فلم يلبثوا أن خلت قلوبهم من مبادئ التوحيد التي جاءت بها الحنيفية السمحة، دين إبراهيم عليه السلام، وأصروا فقط على ظاهرها من شكلية الطقوس دون جوهر العبادة فيها، وذلك ابتغاء المنفعة المادية من وراء سدانة البيت لذاته[٣]، لا تقرباً لله سبحانه وتعالى وخدمة لوفوده وضيوفه. ولم يلبث أبناء إسماعيل أن طالبوا بمقاسمتهم السيادة من جديد على حرم البيت الحرام، بعد أن ساد أخوالهم بنو جرهم بمفردهم عدة قرون، ولكن ذلك لم يتحقق إلى حين.

كانت الكلمة في بني إسماعيل ـ آنذاك ـ لأبناء إياد ومن بعدهم في المضريين، ثم في بني إياس وبني ضبة وبني سعد، ثم آلت من بعدهم إلى بني أسعد بن خزيمة، حتى وصلت في النهاية إلى بطن زرارة وكان ذلك مع نهاية الألف الأول قبل الميلاد[٤]. لم يدم الأمر لهم طويلاً حتى وثبت قبيلة خزاعة على زعامة مكة المكرمة[٥]، وأصبحت لهم السيادة فيها بلا منازع لفترة تجاوزت ثلاثة قرون، وسيتم تناول ذلك بشيء من التفصيل على الشكل الآتي:

أ ـ زعامة خزاعة:

خزاعة هي إحدى قبائل عرب اليمن الأزدية التي نزحت من بلادها إثر سيل العرم، وقد نزلت بعض بطونهم بظاهر مكة المكرمة منذ نهايات القرن الثاني قبل الميلاد. ومع مرور الوقت توالت هجرات بطون أخرى من خزاعة إلى منطقة مكة المكرمة، إذ سكن بعضهم منطقة بطن مَرّ (وادي فاطمة) بالقرب من مكة المكرمة، وكان ذلك خلال القرن الثاني الميلادي[٦]. ونتيجة لتزايد عدد الخزاعيين في منطقة مكة المكرمة، ونظراً لما كان لهم من القوة والنفوذ، سرعان ما طمع بعض شيوخهم في المكاسب التي تجنيها جرهم من وراء سدانة البيت، ولاسيما أن مسلك جرهم في الاستغلال والنهب كان قد تفشى خبره في العرب، وبلغ الأمر ذروته حين زعمت خزاعة أن جرهماً قد تعرضت للقوافل التجارية المارة بالمنطقة، ومنها بعض قوافل خزاعة، فكانت هذه هي الذريعة التي استندت إليها خزاعة في غزوها لمكة المكرمة.

وفي هذا الصدد ثمة رأيان: يقول أولهما إن الخزاعيين المقيمين بظاهر مكة المكرمة قد طلبوا العون من بني قومهم الأزد، ومن ثم كانت حملة التبع اليماني عمرو بن عامر بجيش كبير على الجرهميين بمكة المكرمة وتمت لهم بذلك السيطرة عليها[٧]. أما الرأي الآخر ـ وهو ما يبدو أقرب إلى فحوى أغلب الروايات في هذا الخصوص ـ فهو القائل إن الغلبة على الجرهميين كانت للخزاعيين القادمين من الشام تحت قيادة شخصية شهيرة كثر حولها الجدل هي شخصية عمرو بن لحي الخزاعي[٨] الذي كان متكهناً نصبه قومه ملكاً عليهم فقادهم إلى خلع جرهم عن الزعامة في مكة المكرمة[٩]، ففعلوا بذلك ما فعله بنو جرهم من قبل، حين أزاحوا بني إسماعيل، وأياً كان الأمر فقد خلص أمر السيادة على مكة المكرمة قرابة القرن الثالث الميلادي للخزاعيين[١٠] الذين كانوا قد استعانوا على

(١) رضا، فؤاد علي. أم القرى مكة المكرمة، مرجع سابق، ١١٢.

(٢) ونظراً لشهرة جرهم بالظلم والبغي، فلقد قيل إن الاشتقاق اللغوي(مجرهم) في اللغة العربية قد جاء من اسمهم، وهو يعني الباغي؛ انظر: سلامة، عواطف. قريش قبل الإسلام، مرجع سابق، ٢٤.

(٣) الأزرقي، محمد بن عبدالله بن أحمد. أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، مرجع سابق، ٩٠، ٩١.

(٤) الراشد، سعد، وآخرون. آثار منطقة مكة المكرمة، مرجع سابق، ٥٢، ٥٣.

(٥) المباركفوري، صفي الرحمن. الرحيق المختوم، مرجع سابق، ٢٨.

(٦) سلامة، عواطف. قريش قبل الإسلام، مرجع سابق، ٢٤.

(٧) رضا، فؤاد علي. أم القرى مكة المكرمة، مرجع سابق، ١١٦، ١١٧.

(٨) تجمع أغلب المصادر على ذلك، وإن كانت هناك مصادر قليلة تذكر اسماً آخر هو: عمرو بن ربيعة أو عمرو بن يحيى؛ انظر: صالح، عبدالعزيز. تاريخ شبه الجزيرة العربية، مرجع سابق، ٢٠٠.

(٩) علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق، جـ٤، ١٤.

(١٠) سلامة، عواطف. قريش قبل الإسلام، مرجع سابق، ٢٤؛ وإن كانت هناك آراء أخرى ترى حدوث هذه الخطوة أبكر من ذلك، أي خلال القرنين الأول والثاني للميلاد؛ انظر: المباركفوري، صفي الرحمن. الرحيق المختوم، مرجع سابق، ٢٨.

الجرهميين ببعض العرب العدنانيين من بني إسماعيل، وهم قبيلة كنانة من مضر التي ظفرت جراء نصرتها لخزاعة ببعض الامتيازات الخاصة بالنسك هي الإجازة والإفاضة والنسيء.

وعلى أثر السيادة الكاملة لخزاعة على مكة المكرمة تفرق الجرهميون، فظل بعضهم مقيماً في ظاهر مكة المكرمة، ثم لم يلبثوا بعد حين في فترة ما من بدايات القرن السادس الميلادي، أن لحقوا بأهلهم في اليمن[١]، حيث موطنهم الأصلي.

كانت مكانة عمرو بن لحي الخزاعي في قومه لا تنازع، فبعد انتصار قبيلته على الجرهميين أصبحت معظم مقدرات تجارة مكة المكرمة تحت إمرته، مما زاد في مكانته وشرفه[٢]. وينسب إليه أنه كان ينحر للحجيج ويطعمهم طوال فترة موسم الحج[٣]. ومع مرور الوقت ازداد بن لحي تجبراً وشططاً، إذ تنسب معظم المصادر إليه أنه كان أوّل من بدل حنيفية إبراهيم إلى عبادة الأصنام[٤]، ومن أهمها الصنم هبل[٥]، الذي صار أهم أصنام مكة المكرمة منذ ذلك الوقت[٦]. كما قيل إنه استقدم أغلب الأصنام من جنوب الشام وأقامها من حول الكعبة المشرفة.

وإلى جانب تلك المعبودات القبلية المنقولة عبدت في مكة المكرمة ـ آنذاك ـ أصنام وأوثان أخرى يرتبط بعضها بقصص محلية، مثل إساف ونائلة اللَّذَين نصبا عند الصفا والمروة، كما قُدست بعض الروابي الصخرية في المنطقة كاللات في الطائف، ومناة التي كانت تخص قبيلة هذيل، كما قُدست العزّى وتبوأت مكانة بارزة عند قريش[٧].

ويروى في هذا الشأن كذلك، أن عمرو بن لحي قد أحضر إلى مكة المكرمة بعض الأصنام من منطقة ساحل جدة[٨]، كما جد في إرسال الرسل إلى مختلف أنحاء جزيرة العرب، يطلب من حكامها ورؤوس عشائرها إرسال تماثيل لأصنامهم لتنصب حول البيت، فأجابوه إلى ذلك[٩]، سعياً لنوال المقاسمة في شرف تمثيلهم في حرم البيت العتيق.

لقد كانت بعض الأصنام التي نصبت في مكة المكرمة من أصول تتصل بتقديس الأسلاف ممن كان لهم فضل على عشائرهم وقومهم. ومثال ذلك (ودّ) الذي يروى أنه كان في الأصل أحد الصالحين من قوم نوح، عاش في بلاد الرافدين، فلما مات أحب قومُه وضع تمثال له بينهم ليذكرهم به، وكذلك تماثيل سُواع ويغُوث ويعُوق ونَسْر التي ورد ذكرها جميعاً في القرآن الكريم ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾[١٠]، فلما طال عليهم وعلى عقبهم الأمد وضلوا أو نسوا أصل هؤلاء، أصبحوا بينهم أصناماً تعبد[١١].

وليس هناك من سبيل للجزم بدوافع عمرو بن لحي الخزاعي الحقيقية من وراء ذلك العمل، وإن كانت مخالفة جرهم وبني إسماعيل في معتقداتهم الحنيفية، لإبطال ما بقي من مظاهر سيادتهم على مكة المكرمة، فضلاً عن أن تنشيط تجارة مكة المكرمة مع مناطق الشام وشمال الجزيرة العربية لتصبح متوازنة ومتوازية مع تجارة اليمن والحبشة من أهم هذه الدوافع وراء ذلك.

وإلى جانب الأصنام التي بلغ عددها ما يقارب ثلاثمئة صنم، كبيرة الحجم نسبياً، والمنصوبة من حول الكعبة المشرفة لكثير من المعبودات والأوثان، فقد كانت تصنع لمعظمها

(١) المباركفوري، صفي الرحمن. الرحيق المختوم، مرجع سابق، ٢٧، ٢٨.

(٢) الأزرقي، محمد بن عبدالله بن أحمد. أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، مرجع سابق، ٩٩، ١٠٠.

(٣) رضا، فؤاد علي. أم القرى مكة المكرمة، مرجع سابق، ١٣٨.

(٤) يحيى الشامي، *الشرك الجاهلي وآلهة العرب المعبودة قبل الإسلام*، (بيروت: دار الفكر اللبناني، ١٩٨٦م)، ٣٨.

(٥) علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق، جـ٤، ١٤، ١٥.

(٦) سلامة، عواطف. قريش قبل الإسلام، مرجع سابق، ٢٧٨ ـ ٢٨٧.

(٧) الشامي، يحيى. الشرك الجاهلي وآلهة العرب المعبودة قبل الإسلام، مرجع سابق، ١٥٩.

(٨) سلامة، عواطف. قريش قبل الإسلام، مرجع سابق، ٣٢.

(٩) رضا، فؤاد علي. أم القرى مكة المكرمة، مرجع سابق، ١١٦.

(١٠) نوح، الآية: ٢٣.

(١١) رضا، فؤاد علي. أم القرى مكة المكرمة، مرجع سابق، ٣٨، ٣٩.

صور ونماذج صغيرة، سواء من الخشب أو الحجر أو الطين، بل من عجوة التمر كذلك، وتباع في الأسواق أو بجوار أمكنة انتصاب أصنامها الأصلية، لتكون تذكرة لتابعيهم وعبّادهم، يحفظونها في منازلهم، أو ينقلونها إلى بطاحهم وبواديهم، كذكرى لرحلة الزيارة السنوية أو الموسمية إلى مكة المكرمة.

كما أُخذت الزعامة في مكة المكرمة من جرهم حدث الأمر ذاته مع خزاعة، ولكن بطريقة مختلفة، فلقد انهارت مكانتهم وقل شأن سادتهم من خلفاء عمرو بن لحي، فكان أن آلت الزعامة فيهم في آخر عهدهم بها، وذلك قرب منتصف القرن الخامس الميلادي[١]، إلى حليل بن سلول الخزاعي[٢]. وقد قيل: حليل بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو الخزاعي[٣] الذي صاهره الشاب قصي بن كلاب زعيم قريش الواعد، والعائد آنذاك من بادية الشام، فتزوج من ابنته (حبى) التي أنجبت له أولاده عبدالدار وعبدمناف وعبدالعزّى وعبدقصي، فعاش قصي وأولاده في يسر وكرامة في حياة حليل[٤]، ثم آل الأمر في مكة المكرمة من بعد ذلك إلى أحد أبناء حليل وهو عمرو بن الحارث (المكنى أبا غبشان) الذي تصفه الروايات التاريخية بأنه لاهٍ وعابثٌ، فهوت تصرفاته غير المتزنة وأفعاله غير المسؤولة بمكانته في أعين العرب؛ ما جعلهم يرون أنه لا يستحق ما كانوا يدفعون لأبيه وأسلافه من الرَّسْم المعلوم لدخول حرم البيت في مواسم النسك[٥]، فما كان من قصي إلا أن استغل هذا الوضع المتردي. وقد قيل في ذلك عدد من الأقوال، من بينها أنه أقنع أهله من رؤوس بني إسماعيل بأنهم أحق بعودة الولاية على البيت إليهم، فساندوه[٦]، أو أنه تحايل على أخذ حق سدانة البيت من أبي غبشان، ويقال إن ذلك تم في مقابل متاع بخس يقوَّم بدراهم معدودة[٧]، وأن قصياً قد أشهد عليه كي يوثق ما تم، وهكذا تمكن قصي ـ بمساعدة من قبيلته ذات الكثرة والغلبة ـ من مواجهة خزاعة فسلبها مقومات عزها وثرائها، واستتب الأمر في نهايته لقصي وكنانة قسراً. وبذلك ضم قصي السيادة على الحرم إلى ما كان لقومه من كنانة من امتيازات سابقة، كانت تتمثل في إجازة حج الحجيج وقيادة إفاضتهم إلى المشعر الحرام فضلاً عن إقرار النسيء (إقرار حل شهر من أشهر الحرم وإحلاله بآخر)[٨]، أما الخزاعيون فقد ارتحل من لم يَقوَ منهم على الإقامة بمكة المكرمة إلى بطن مَرّ في وادي فاطمة، حيث انضمت إليهم فيما بعد بطون من خزيمة بن مدركة وحالفوهم وعاشوا معهم هناك[٩].

ب ـ مكة القرشية:

يبدو من تسلسل النسب القرشي أن فهر بن مالك من ولد النضر بن كنانة كان سيداً لقريش، وتواترت الزعامة في عقبه حتى وصلت من بعد أجيال ستة إلى قصي بن كلاب في منتصف القرن الخامس الميلادي تقريباً[١٠].

أما عن أصل التسمية (قريش)، فقد قيل عنها روايات مختلفة، أشهرها أنها لقب تلقب به النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر[١١]، جد قريش، لبطولته ومهارته، وإغاثته المحتاج، وقيل إنه لقب لحفيد النضر فهر بن مالك بن النضر[١٢]، أو أن شخصاً يدعى قريشاً كان دليل قوافل القوم على زمن النضر[١٣]، فكان عندما يُرى تعرف قوافل قريش، كما قيل في ذلك عدة أقوال[١٤]، حصرها بعضهم فيما يصل إلى عشرين قولاً[١٥]، ولكن

(١) مهران، محمد. دراسات في تاريخ العرب، مرجع سابق، ٣٩٤.

(٢) علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق، جـ٤، ١٤.

(٣) الأزرقي، محمد بن عبدالله بن أحمد. أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، مرجع سابق، ١٠١، ١٠٢.

(٤) علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق، جـ٤، ٤١، ٤٢.

(٥) سلامة، عواطف. قريش قبل الإسلام، مرجع سابق، ١٤٥.

(٦) المباركفوري، صفي الرحمن. الرحيق المختوم، مرجع سابق، ٢٩، ٣٠.

(٧) انظر: علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق، جـ٤، ٤٢؛ M. Kister, Society and Religion from Jahiliyya to Islam, Hampshire: variorum,1990 p 36.

(٨) سلامة، عواطف. قريش قبل الإسلام، مرجع سابق، ١٤٤، ١٤٥.

(٩) صالح، عبدالعزيز. تاريخ شبه الجزيرة العربية، مرجع سابق، ٢٠١.

(١٠) علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق، جـ٤، ١٨.

(١١) المرجع السابق، جـ٤، ٢٦.

(١٢) رضا، فؤاد علي. أم القرى مكة المكرمة، مرجع سابق، ١٤٢.

(١٣) علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق، جـ٤، ٢٣، ٢٤.

(١٤) سلامة، عواطف. قريش قبل الإسلام، مرجع سابق، ٣٩، ٤٠.

(١٥) علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق، جـ٤، ٢٢ ـ ٢٧.

الراجح من بين هذه الأقوال أن تسمية قريش جاءت من بعض الاشتقاقات اللغوية لكلمة (قرش) التي ارتبطت معانيها بالقوم نتيجة لتجمعهم، أي من التقرّش في الحرم ومن حول الكعبة المشرفة، فالتقرّش لغة هو التجمع[١].

أصبحت مكة المكرمة قوة محلية يحسب لها حسابها بدءاً من عهد قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة[٢]، المؤسس الحقيقي للكيان القرشي المكي في فترة قبيل الإسلام، فقد جمّع قريشاً وحزم أمرهم على كلمة واحدة، لذلك سمّي مجمّعاً [٣]، وفي ذلك قال الشاعر حذافة بن غانم القرشي[٤]:

قصي أبوكم كان يدعى مجمعاً

به جمع الله القبائل من فهر

نزلت منذ تلك الفترة أهم أقسام قريش في وادي مكة المكرمة وفي بطاحها من حول الكعبة المشرفة، وهم قريش البواطن والأبطحيون[٥]، وفيهم العصب والشرف والمجد ولهم سدانة البيت والقيام على شؤون الحجيج، بينما سكنت بعض بطونهم بظاهر مكة المكرمة وهم الأعراب[٦] وأهل بادية مكة المكرمة. وبينما ارتحلت فروع قليلة من قريش إلى خارج مكة المكرمة، فقد ساكن القرشيون بمكة المكرمة بعض بني عمومتهم من كنانة، وكذلك بعض من بقي فيها من خزاعة وغيرهم من بعض بطون العرب الأخرى[٧].

سمي قصي بن كلاب، واسمه الأصلي زيد[٨]، باسمه الذي اشتهر به، وهو (قصي)، لأنه نشأ في أرض قاصية عن مكة المكرمة موطن قومه[٩]، إذ قضى طفولته وشبابه الأول في بني عذرة. وكانت أرضهم في أقصى الشمال، عند التقاء بلاد الشام بالجزيرة العربية، إذ كانت أمه فاطمة بنت عمرو بن سعد بن سيل قد اتخذت بعد وفاة أبيه زوجاً من كبرائهم يدعى ربيعة بن حرام[١٠]، فرحلت لتعيش معه في قومه، مصطحبة ولدها معها. ويقال إن قصياً عندما شب عن الطوق عُيّر من بعض فتيان القوم بغربته، فأطلعته أمه على شرف أصله وكرم نسبه، فكره الغربة وآثر اللحاق بقومه في مكة المكرمة[١١].

لقد كان لنشأة قصي بالقرب من التخوم الجنوبية لبلاد الشام أثرها الكبير في اطلاعه على كثير من تنظيمات المدن، وأساليب تسيير أمورها من النواحي الإدارية، وربما أن ذلك هو ما حدا به إلى تقسيم وادي مكة المكرمة أرباعاً من حول مطاف الكعبة المشرفة، وبدأ ببناء بيت كبير يفتح بابه على الكعبة المشرفة، وجعل منه مقراً لرأي قريش وندوة لكبرائها[١٢]، وهو ما سمي فيما بعد بـ(دار الندوة). وقد كانت منذ بداية عمارتها في عهد قصي داراً للحكم لتنفيذ جليل أمور قريش وصغيرها على حد سواء، ففيها تعقد ألوية القتال وتقر الأنكحة، ويتم التشاور في كل ما يخص القوم ويتصل بمعطيات حياتهم وعلاقاتهم بالآخرين[١٣].

وينسب إلى قصي كذلك الاهتمام الكبير بكل تفاصيل نسك الحجيج والنظر فيما يصلحها، ومن ذلك ما ورد من أنه كان أول من أوقد ناراً كبيرة في منى ليلة عرفة، حتى يهتدي الناس بضوئها، فتيسر عليهم السير في الزحام الشديد وقت النفرة إلى مزدلفة، كما نظم قصي أمور الرفادة، فقد فرض على كل بيت من قريش خرجاً [١٤]، لكي يصنع به طعاماً لمن يحتاج من الحجيج في منى[١٥].

سكن بنو قصي وذووه وبطون قريش العصب بطن الوادي من حول البيت الحرام،

(١) صالح، عبدالعزيز. تاريخ شبه الجزيرة العربية، مرجع سابق، ٢٠٠.

(٢) علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق، جـ٤، ٤٠؛ رضا، فؤاد علي. أم القرى مكة المكرمة، مرجع سابق، ١٤٢، ١٤٣.

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق، جـ٤، ٢٤.

(٥) سلامة، عواطف. قريش قبل الإسلام، مرجع سابق، ٤٢، ٤٣.

(٦) علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق، جـ٤، ٢٩.

(٧) سلامة، عواطف. قريش قبل الإسلام، مرجع سابق، ٦٩ ـ ٧١.

(٨) حسين مؤنس، *تاريخ قريش: دراسة في تاريخ أصغر قبيلة عربية جعلها الإسلام أعظم قبيلة في تاريخ البشر*. ط١، (جدة: الدار السعودية، ١٤٠٨ هـ/١٩٨٨م)، ٩٢.

(٩) رضا، فؤاد علي. أم القرى مكة المكرمة، مرجع سابق، ١٨٠.

(١٠) الأزرقي، محمد بن عبدالله بن أحمد. أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، مرجع سابق، ١٠٤.

(١١) أحمد السباعي، *تاريخ مكة: دراسة في السياسة والعلم والاجتماع والعمران*، (الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مئة عام على تأسيس المملكة، ١٤١٩ هـ/١٩٩٩م)، جـ١، ٣١.

(١٢) سلامة، عواطف. قريش قبل الإسلام، مرجع سابق، ٨٠، ٨١.

(١٣) علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق، جـ٤، ٤٤، ٤٥.

(١٤) رضا، فؤاد علي. أم القرى مكة المكرمة، مرجع سابق، ١٤٤.

(١٥) السباعي، أحمد. تاريخ مكة، مرجع سابق، جـ١، ٦٣، ٦٤.

أما من لم يتسع لهم المجال فقد سكنوا شعاب الجبال بظاهر مكة المكرمة، وقد تُركَت مسافات للمارة بين البيوت المحيطة بالمطاف تيسيراً على الناس في الوصول إلى الحرم وأداء النسك. ولا حاجة للخوض هنا في تفاصيل مخطط مكة المكرمة وأرباعها ومواقع بيوت كبرائها، وهو أمر أفاضت في ذكره دراسات أخرى كثيرة[١]، وحسبنا الإشارة إلى أن كل بطن من بطون قريش كان له أرباع خاصة به تقوم فيه منازل أهله ومساكن من يلتحقون بهم من الموالي والأتباع، حتى لقد ظل كثير من الأبواب المؤدية إلى الكعبة المشرفة بعد ذلك ولفترات طويلة، تدعى بأسماء تلك البطون التي كانت بيوتها قريبة منها. كما يجدر بالذكر في هذا المجال الإشارة إلى طابع المخططات الدائرية أو البيضاوية التي بنيت عليها بيوت أرباع قريش من حول الكعبة المشرفة في تلك الفترة؛ لكي لا تكون مربعة فتشابه الكعبة المشرفة، وقد دام هذا الطراز من المنازل من حول الكعبة المشرفة حتى نهاية القرن السادس الميلادي[٢].

استكمل تخطيط مكة المكرمة بتحديد مواضع معينة للأسواق المحلية، وزاد الاهتمام بحفر الآبار وتنظيفها ليتيسر إمداد المياه لقريش ومساكنيهم والآلاف من زوار مكة المكرمة وعمَّارها في مواسم النسك، وكانت زمزم المباركة - آنذاك - لا تزال مطمورة، حتى أعاد حفرها عبدالمطلب بن هاشم جد النبي ﷺ[٣].

وهكذا استقرت منذ عهد قصي بن كلاب - مجمع قريش - تنظيمات فريدة في قريش تتعلق بأساليب الحكم والقيادة ونظمها، احتفظت بكثير من التقاليد القبلية مع تبنيها كثيراً من أطر الشورى والقيادة الجماعية التي يسود فيها الزعماء والحكماء من رؤوس القوم، ويتوازعون فيما بينهم أطر السيادة والشرف الفعلية والاسمية في المجالات السياسية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية كلها، وكل ما كان يكتنف هذا المجتمع المتفرد من فعاليات، ودون أن يكون هناك ملك أو حاكم بعينه[٤].

ويرى بعض الباحثين تأثر هذا النظام بنظم دويلات المدن التي ولدت في بلاد الرافدين القديمة وتبنتها بعد حين ممالك ودويلات بلاد الشام، وذلك ما تأثر به قصي نفسه الذي قضى صباه وبواكير شبابه هناك[٥]. ويتميز نظام دويلات المدن بكثير من مظاهر التنظيم الإداري الراقي ومشاركة كبار مواطني الدويلة في تسيير أمورها، إلا أن هذه المشاركة ظلت دائماً صورية ومحدودة، وظل القياد الحقيقي لأمور الدويلة في يد حاكمها وحده[٦].

وعلى الرغم من ذلك يسجل لنا التاريخ بعض محاولات فاشلة للتملك في مكة المكرمة، من أشهرها سعي عثمان بن الحويرث (الملقب بالبطريق)[٧]، وهو من بني أسد بن عبدالعزى[٨] في طلب العون من قيصر الروم وبعض ملوك الشام لتنصيبه ملكاً على مكة المكرمة. وكاد مسعاه يتم لولا تدارك سادة قريش وبعض من أهل عثمان نفسه وأبناء عمومته الأمر في لحظاته الأخيرة، وذلك حين أعلن قائلهم كلمته التي صارت مثلاً في الآفاق: «إن قريشاً لقاحاً لا تُملَك ولا تُملَّك»[٩]. لقد تمتعت مكة المكرمة آنذاك بالأمن والأمان الغالب على ربوعها وجوارها، فضلاً عما أتاحته أنشطة حجها وزيارتها من تشعب في المجالات

(١) سلامة، عواطف. قريش قبل الإسلام، مرجع سابق، ٨٠ ـ ٨٨.

(٢) الراشد، سعد، وآخرون. آثار منطقة مكة المكرمة، مرجع سابق، ١٥٧.

(٣) السباعي، أحمد. تاريخ مكة، مرجع سابق، جـ١، ٦٣.

(٤) علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق، جـ٤، ٤٩.

(٥) عبدالرحمن الأنصاري، «الأحوال العامة للجزيرة العربية عند البعثة النبوية»، *دراسات تاريخ الجزيرة العربية: الجزيرة العربية في عصر الرسول*، (الرياض: جامعة الملك سعود، ١٤١٠)، جـ١، ٥ ـ ١٨.

(٦) جورج رو، *العراق القديم*، ترجمة وتعليق: حسين علوان حسين. ط٢، (بغداد: وزارة الثقافة والإعلام، ١٩٨٦م)، ١٨٦ ـ ١٨٨.

(٧) علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق، جـ٤، ٩٣، ٩٤.

(٨) المرجع السابق، جـ٤، ٣٩، ٤٠.

(٩) سلامة، عواطف. قريش قبل الإسلام، مرجع سابق، ١٦١ ـ ١٦٣.

وتعدد في الأنشطة المرتبطة بذلك التي أتاحت بدورها مجالات مختلفة للشرف والسيادة والزعامة اتسعت لكثيرين من وجوه القبائل والعشائر، وكان الحظ وافراً للجميع دون حاجة إلى التنازع والتصارع. وكانت الغالبية من وجوه القوم على درجة من الوعي وتدرك أن نشوب مثل هذه المنازعات سوف يفتُّ في عضد قريش جميعها ويقوض مكانتها وسيادتها لدى العرب بما ينعكس سلباً على كل مناحي الحياة في مكة المكرمة ويهدد أمن البيت، فلا يكون آمناً لزواره وعماره فيفقد الجميع أهم موارد رزقهم وأغلى معطيات مكانتهم.

لذلك استقر الأمر بينهم على وضع امتيازات الشرف ذات الاعتبارات الفعلية أو الاسمية معاً، وهي السقاية والعمارة (رعاية الآداب العامة وحفظ الأمن داخل حرم البيت)، والعقاب (لواء الحرب)، والندوة والرفادة والحجابة (حفظ مفتاح الكعبة المشرفة وفتح بابها)، والسدانة (السيادة العامة على حرم البيت)، والأشناق (تسوية أمور الديات والمغارم)، والسفارة والأعنة (قيادة الفرسان)، والأيسار (ضرب الأزلام والأقداح)، وغيرها، في أهم عشرة بيوت من قريش، وهي: هاشم وأمية ونوفل وعبدالدار وأسد وتيم ومخزوم وعدي وجُمَح وسهم، بل كانت بعض هذه البيوت تحوز أكثر من امتياز منها معاً، بينما تتولى بيوت أخرى أحد هذه الامتيازات بمفردها[١].

لقد كانت اجتماعات دار الندوة الدورية (أيام السبت من كل أسبوع)، أو الطارئة (حين يجد أمر يحتاج إلى الحسم العاجل)، بمن كانت تضمهم من حكماء قريش وسادتها كافية للفصل في شؤونهم، وحسم النزاعات فيما بينهم أو مع غيرهم، وكذلك لإنفاذ أمور تجارتهم وحلفهم وحربهم وكذلك زواجهم[٢] وكل ما يعن لهم من قضايا أخرى[٣]، حتى ليرى بعض الباحثين في دورها الذي لعبته صورة مماثلة لأدوار مجالس المسود في المجتمعات السبئية والقتبانية والمعينية في اليمن القديم[٤].

توزعت من بعد وفاة قصي مظاهر الشرف والسيادة التي حازها بين أبنائه، وفاز من بينهم أكبرهم عبدالدار بأكبر نصيب. ومع الوقت وخشية حدوث صراعات بين فروع بيت قصي[٥] ـ وأهمها فرعا عبدالدار وعبدمناف (واسمه الأصلي المغيرة)[٦]، خصوصاً أن الفتن قد بدأت تدب بينهم بالفعل، وانقسموا أحلافاً وتجهزوا للقتال فيما بينهم ـ آثروا الصلح[٧]، واقترعوا، فصارت السقاية والرفادة لبني عبدمناف، بينما ظلت الندوة (أي الزعامة السياسية الرسمية) ومعها الحجابة واللواء لبني عبدالدار، ولم تلبث زعامة بني عبدمناف أن تنازع عليها فرعان يمثلهما الأخوان التوأم هاشم وعبدشمس[٨]، حتى خلصت الرئاسة للأول بغلبة أفعاله وحسن خصاله، فقد نظم التجارة وتعاقد على العصم (الإيلاف) مع مختلف الحكام والزعماء لضمان الأمن للقوافل المكية المغادرة شمالاً وجنوباً.

وعندما ألَمَّت بمكة المكرمة مجاعة شديدة على زمانه رحل هاشم ـ وكان اسمه الأصلي عمرو[٩] ـ إلى الشام، واستجلب من هناك كميات ضخمة من دقيق الحبوب[١٠]، فصنع منها كميات من الخبز ونحر معها عدداً كبيراً من الإبل، ثم هشم الخبز مع اللحم (ويروى أن ذلك هو سبب تسميته هاشماً) ليصير ثريداً،

(١) رضا، فؤاد علي. أم القرى مكة المكرمة، مرجع سابق، ١٤٦ ـ ١٤٩.
(٢) المرجع السابق، ١٩٣.
(٣) سلامة، عواطف. قريش قبل الإسلام، مرجع سابق، ١٦٧ ـ ١٧١.
(٤) صالح، عبدالعزيز. تاريخ شبه الجزيرة العربية، مرجع سابق، ٢٠١.
(٥) علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق، جـ٤، ٥٨ ـ ٦٠.
(٦) رضا، فؤاد علي. أم القرى مكة المكرمة، مرجع سابق، ١٨٠.
(٧) علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق، جـ٤، ٥٨ ـ ٦٤.
(٨) رضا، فؤاد علي. أم القرى مكة المكرمة، مرجع سابق، ١٨٢، ١٨٣.
(٩) علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق، جـ٤، ٦٤ ـ ٦٦.
(١٠) سلامة، عواطف. قريش قبل الإسلام، مرجع سابق، ١٤٨، ١٤٩.

وأطعم به قومه حتى شبعوا وفاض الطعام على كل سكان مكة المكرمة. ولم يطل العمر كثيراً بهاشم، إذ يروى أنه توفي في غزة ببلاد الشام[١]، بينما كان هناك في بعض تجارته، ولم يكن وقتئذ قد بلغ سن الأربعين[٢]. خلف هاشماً في السقاية والرفادة أخوه المطلب بن عبدمناف، الملقب بالفيض لكرمه، ثم من بعده بن أخيه شيبة الحمد بن هاشم الملقب بعبدالمطلب (جد النبي ﷺ)، الذي ولد نحو عام ٤٩٧م من أم خزرجية تدعى سلمى بنت عمرو بن زيد[٣]، في يثرب بين أخواله حين ترك أبوه هاشم أمه سلمى لتلد في أهلها وهو في طريقه للسفر إلى الشام. وتوفي عبدالمطلب عام ٥٩٧م[٤]، ونظراً لحكمته وسماحته فقد كان الشيخ المطاع في جُلّ شؤون مكة المكرمة، إلى جانب ولايته السقاية والرفادة عن أبيه وعمه. وقيل في خُلُقه إنه كان يكره الخمر وينهى عن القتل والزنا ويحرص على الوفاء بالعهد، وإنه كان يكثر الطواف بالبيت ويحرِّم البغي بمكة المكرمة[٥].

ولعل مما زاد في شرف عبدالمطلب بن هاشم ومكانته قيامه بحفر بئر زمزم، وإعادة الكشف عن مكانها، بعد أن كانت مجهولة على وجه التحديد، منذ أن ردمها الجراهمة عندما أيقنوا بانتصار خزاعة وحلفائهم من كنانة عليهم، وأنهم لا شك سوف يجبرون على الرحيل عن حرم البيت، فردموا البئر المباركة، قوام الحياة من حول الكعبة المشرفة، بعد أن خبؤوا فيها كنوزهم الذهبية وأثمن ذخائرهم وبينها غزالان من الذهب الخالص، وسيوف ذات أغماد من الذهب، وأموال كثيرة. وقيل كذلك إنهم انتزعوا الحجر الأسود من مكانه ـ آنذاك ـ ووضعوه مع كنوزهم في بئر زمزم[٦]؛ وذلك مخافة أن تقع هذه النفائس في يد خزاعة حين خروجهم منها، وعلى أمل تمكنهم من العودة يوماً ما واستعادة سيادتهم القديمة على مكة المكرمة، ومن ثم يتسنى لهم حفر زمزم مرة أخرى واستعادة كنزهم الثمين. ولكن ذلك لم يتحقق وظل تحديد موضع زمزم سراً تضمه أرض الحرم في جنباتها الطاهرة، حتى رأى عبدالمطلب بن هاشم في المنام موضعها، فأمر بحفرها، حسب الرواية المشهورة عن بن إسحاق في ذلك[٧]. وثمة رواية أخرى في هذا الصدد تبدو أكثر واقعية[٨]، مفادها أن عبدالمطلب قد استقصى أمر البئر ومكانها من الرواة والمسنين من أهل مكة المكرمة وتحرّى موقعها، ثم شرع في حفرها[٩].

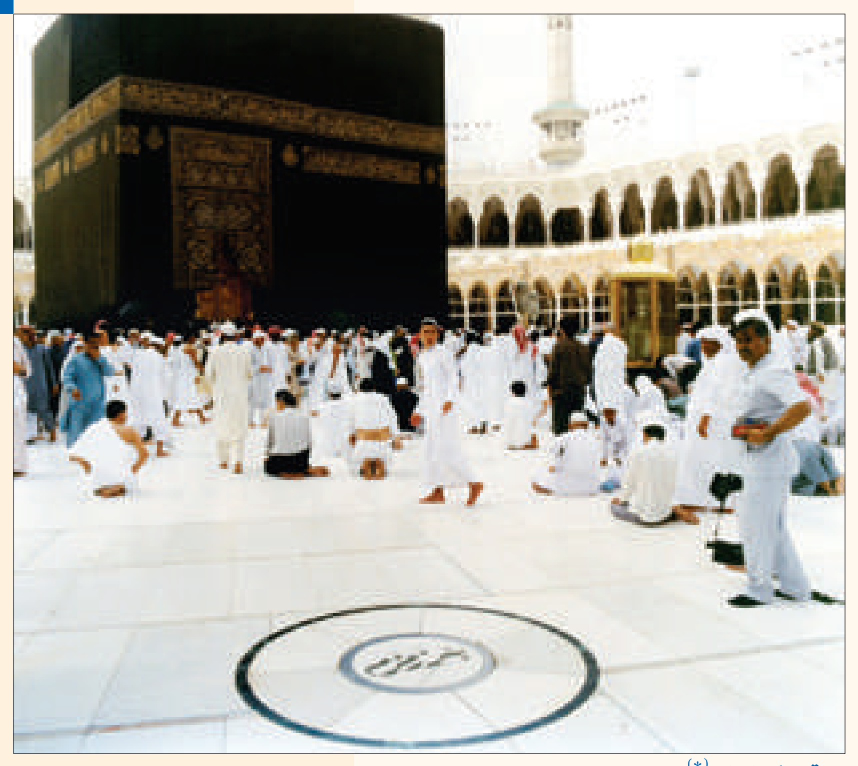
ولما أرادت باقي قريش مقاسمته فيها، وحدث في ذلك شقاق كبير، ولم يكن لعبدالمطلب من الولد ـ آنذاك ـ إلاّ بكره الحارث، وأحس بعدم مقدرته على مجابهتهم، نذر إن رزقه الله بعشرة من الولد ليذبحن أحدهم تقرباً له، فيما يروى من القصة المشهورة عن فداء عبدالله والد المصطفى ـ وهو من خرجت عليه القداح في كل مرة[١٠] ـ بمئة من الإبل نحرها عبدالمطلب ونال منها كل من بمكة المكرمة حتى سباع الجبال وطيور السماء. ولما تم حفر البئر المباركة استخرج عبدالمطلب كنوز الجراهمة فلم يستأثر بها لنفسه، وإنما صهر معدن السيوف وصنع منه باباً للكعبة غطاه بصفائح ذهبية[١١]من مصهور أحد الغزالين الذهبيين، بينما أودع الغزال الثاني في جوف الكعبة المشرفة.

(١) علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق، جـ٤، ٧٢.
(٢) رضا، فؤاد علي. أم القرى مكة المكرمة، مرجع سابق، ١٨٤.
(٣) علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق، جـ٤، ٧٤.
(٤) سلامة، عواطف. قريش قبل الإسلام، مرجع سابق، ١٤٩، ١٥٠.
(٥) علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق، جـ٤، ٧٤، ٧٥.
(٦) المباركفوري، صفي الرحمن. الرحيق المختوم، مرجع سابق، ٢٨.
(٧) رضا، فؤاد علي. أم القرى مكة المكرمة، مرجع سابق، ٢٠٨، ٢٠٩.
(٨) سلامة، عواطف. قريش قبل الإسلام، مرجع سابق، ١٥٢.
(٩) مؤنس، حسين. تاريخ قريش، مرجع سابق، ١٤٤.
(١٠) علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق، جـ٤، ٧٨.
(١١) المرجع السابق، جـ٤، ٧٦.

وبفضل ذلك تعززت منزلة عبدالمطلب شيخ بني هاشم من بعد حفر البئر المباركة، واستقرار إمدادات الماء الطيب الزلال الذي لم يُمنَع منه أحد من سكان الحرم أو زائريه، حتى لقد أغنتهم زمزم عن جلب الماء إلى الحرم من الآبار الأخرى[١] في خارج الوادي، وبذلك بلغت مكانة عبدالمطلب بن هاشم شأناً لم يدانِه فيه أحد.

وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى حادثتين مهمتين وقعتا في عهده، أولاهما هي الحادثة المشهورة الخاصة بذهابه لمقابلة أبرهة الحبشي خارج مكة المكرمة[٢]، ومطالبته إياه بإبله المئتين التي سلبها جنده، فلما تعجب أبرهة من أن شيخ مكة المكرمة يحادثه في أمر هين كهذا ويترك الحديث في رده عما اعتزمه من هدم البيت الحرام بأفياله، يجهر الشيخ الجليل في وجه أبرهة بأنه هو رب الإبل وأن للبيت رباً سيمنعه عنه. أما الحادثة الثانية فهي قيامه على رأس وفد من وجوه مكة المكرمة بزيارة اليمن لتهنئة الملك سيف بن ذي يزن[٣] باسترداد الملك من الأحباش بعد هلاك أبرهة الأشرم، والفترة القصيرة التي حكمها ولداه اللذان خلفاه على العرش[٤]، وذلك على الرغم مما تشير إليه بعض الروايات أن السفارة كانت من امتياز بني عدي وحدهم حسب الأعراف المكية[٥].

لقد أوصى الشيخ الجليل عبدالمطلب في آخر عمره بالسدانة والسقاية والرفادة إلى ابنه الزبير الذي تنازل عنها فيما بعد مختاراً إلى أخيه عبدمناف المكنى أبا طالب الذي تنازل بدوره عن السقاية والرفادة دون سدانة البيت لأخيه العباس، وذلك وفاء لديون كثيرة كانت مستحقة عليه، استقضاها من أخيه، كي يقوم بحق الرفادة على وجهها الأكمل. وظلت السقاية للعباس بن عبدالمطلب حتى أول الإسلام، بينما ظل تداول اللواء (حق إعلان الحرب)، وتوارث الحجابة (حفظ مفتاح الكعبة المشرفة وفتح بابها) في بني عبدالدار حتى فتح النبي ﷺ مكة المكرمة في النصف الثاني من شهر رمضان من العام الثامن الهجري، وكانت آنذاك بيد عثمان بن طلحة[٦].



موقع بئر زمزم [*]

رابعاً - عمارة الكعبة المشرفة:

وفقاً لرواية القطبي فقد جددت جرهم بناء الكعبة المشرفة الذي أقامه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، من بعد سيول هدمت بعض أجزائه[٧]. كما قامت خزاعة كذلك ببعض الترميمات في البناء من بعد سيول مماثلة تعرض لها البيت على زمن ولايتها له. وكانت

(١) علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق، جـ٤، ٥٤، ٥٥.
(٢) رضا، فؤاد علي. أم القرى مكة المكرمة، مرجع سابق، ٢٢٤، ٢٢٥.
(٣) علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق، جـ٤، ٧٧، ٧٨.
(٤) صالح، عبدالعزيز. تاريخ شبه الجزيرة العربية، مرجع سابق، ٢٠٥.
(٥) سلامة، عواطف. قريش قبل الإسلام، مرجع سابق، ١٥٨.
(٦) المرجع السابق، ١٥٦، ١٥٧.
(٧) علي، أحمد رجب. المسجد الحرام بمكة المكرمة ورسومه في الفن الإسلامي، مرجع سابق، ٢٢.
(*) المصدر: مجموعة بن لادن السعودية.



الكعبة المشرفة

الكعبة المشرفة في تلك الفترة بلا سقف، حتى جدد قصي بن كلاب بناءها في بداية ولاية قريش لها، وجعل لها لأول مرة ـ على القول الراجح ـ سقفاً من أفلاق شجر الدوم عرّشه بجريد النخل[١]. ثم عَمَّرت قريش الكعبة المشرفة وجددت بناءها مرة أخرى نحو عام ٦٠٥م، والنبي ﷺ يناهز الخامسة والثلاثين من عمره، أي قبل بعثته الشريفة بخمس سنوات، وذلك بعد حريق تبعه سيل كبير أضرّا ببنائها[٢]. ونظراً لقلة الأخشاب الجيدة في وادي مكة المكرمة ـ آنذاك ـ فقد استخدمت الأخشاب اللازمة لتقوية البناء وتسقيفه من بقايا مراكب ملاحية كبيرة كانت قد تحطمت في البحر الأحمر، فقذفت الأمواج أخشابها عند ساحل ميناء الشعيبة[٣]. وتعد مسألة البناء ـ آنذاك ـ ذات دلالة مهمة على مكانة المصطفى عليه الصلاة والسلام في قومه قبل البعثة، إذ لقب بالصادق الأمين، وكان ذلك السبب الرئيس في تسليمهم بحكمه في خلافهم حول أيهم يضع الحجر الأسود في موضعه[٤]، الأمر الذي كاد يؤدي إلى التنازع والخلاف فيما بينهم، فكان أن فرد رداءه الشريف (وقيل إن الرداء كان يخص الوليد بن المغيرة)[٥]، وحمله من أطرافه كل من عتبة بن ربيعة، وزمعة بن الأسود بن المطلب، وأبي حذيفة بن المغيرة، وقيس بن عدي السهمي، والعاص بن وائل، وكانوا من الكبراء والسادة في مكة المكرمة آنذاك[٦]، ثم تناوله بيده الشريفة ﷺ عند وصولهم إلى الركن ووضعه في موضعه.

لقد بلغ ارتفاع البناء في عمارة قريش له ثماني عشرة ذراعاً (أي نحو عشرة أمتار)، بينما أُنقصَ ضلعه الشرقي نحو ست أذرع فأصبح ستاً وعشرين ذراعاً، وأُنقصَ ضلعه الغربي فأصبح طوله خمساً وعشرين ذراعاً، وبقيت أطوال الضلعين الشمالي والجنوبي كما كانت في عمارة خليل الرحمن، فظلت اثنتين وعشرين ذراعاً وعشرين ذراعاً على الترتيب[٧].

كانت الكعبة المشرفة منذ بنائها في عهد الخليل عليه السلام، موضعاً لتقديس العرب، تهفو إليها قلوبهم، وتُشدُّ إليها رحالهم، وكما اهتموا بالحفاظ على عمارتها وترميمها، فقد كانوا يكسونها كذلك بثمين الأردية، ويقال إن أبا كرب أسعد (أبوكرب أسعد) الملك الحِمْيري كان أول من كساها، وذلك في بداية القرن الخامس الميلادي. وكانت الكسوة من الحصير والوصايل والمسوح والبرود، ثم استمرت هذه العادة قائمة، وإن اختلفت أنواع الكسوات والخامات المصنوعة منها، فلقد كسيت الكعبة المشرفة بالديباج، لأول مرة في أواخر القرن السادس الميلادي، حين نذرت نتيلة ـ أم العباس بن عبدالمطلب ـ ووفت بنذرها، حال عثورها على ابنها العباس الذي كان قد فُقِد منها[٨].

(١) يوسف بن علي الثقفي، *تاريخ الكعبة المعظمة : عمارتها وكسوتها وسدانتها*، (الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مئة عام على تأسيس المملكة، ١٤١٩ هـ)، ٨٥؛ علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق، جـ٤، ٥٣.

(٢) علي، أحمد رجب. المسجد الحرام بمكة المكرمة ورسومه في الفن الإسلامي، مرجع سابق، ٢٤.

(٣) سلامة، عواطف. قريش قبل الإسلام، مرجع سابق، ٢٧٠، ٢٧١.

(٤) رضا، فؤاد علي. أم القرى مكة المكرمة، مرجع سابق، ٢٥٦، ٢٥٧.

(٥) سلامة، عواطف. قريش قبل الإسلام، مرجع سابق، ٢٧١.

(٦) السباعي، أحمد. تاريخ مكة، مرجع سابق، جـ١، ١٦٠.

(٧) علي، أحمد رجب. المسجد الحرام بمكة المكرمة ورسومه في الفن الإسلامي، مرجع سابق، ٢٣ ـ ٢٦.

(٨) سلامة، عواطف. قريش قبل الإسلام، مرجع سابق، ٢٧٣، ٢٧٤.



جبال الطائف

خامساً ـ أبرز مراكز الاستيطان:

إضافة إلى مكة المكرمة نفسها ينتشر في أرجاء المنطقة عدد من المراكز الاستيطانية ذات أبعاد حضارية وثقافية، ومن أهمها ما يأتي:

أ ـ الطائف:

تقع الطائف فوق جبل غزوان المرتفع[١]، لذلك تتميز بطيب هوائها وبرد نسيمها، وسميت الطائف بهذا الاسم نسبة إلى السور الذي بناه بنو ثقيف ليطوف من حولها ويحمي أهلها وثرواتها من غارات الأعداء[٢]. وقد أشار عليهم ببنائه وأشرف على عملية البناء أحد الحضارمة الفارين من قومهم ويدعى الدمون بن عبدالملك الحضرمي[٣]، خشية الثأر منه لقتله أحد أبناء عمومته[٤]. وفي سور الطائف قال الشاعر أمية بن أبي الصلت مفاخراً:

نحن بنينا حائطاً حصيناً

يقارع الأبطال عن بنينا

تعود أقدم الأدلة الأثرية المؤكدة على استيطان الطائف إلى نحو ربع مليون عام قبل الوقت الحاضر، فقد عثر في جبل العرفاء الواقع على مسافة ٣٥ كم شمال شرقي الطائف على أدوات حجرية آشولية الصنع تؤرخ إلى العصر الآشولي الأوسط، وتتشابه تقنية صناعتها مع أدوات منطقة وادي فاطمة الحجرية، كما كشف في الموقع نفسه عن مجموعة من الرسوم الصخرية لحيوانات من فصائل برية وداجنة، تراوح تواريخها بين نهايات العصر الحجري الحديث وحتى فترة قبيل الإسلام، ويشتمل الموقع أيضاً على عدد من النقوش كتبت بقلم الخط الثمودي[٥]، وهذه النقوش دليل واضح على استخدام سكان منطقة مكة المكرمة بوجه عام، والطائف على وجه الخصوص للخط الثمودي في توثيق معاملاتهم الخاصة والعامة خلال القرون الأولى للميلاد.

فضلاً عن ذلك تتجسد شواهد نشاط سكان الطائف خلال فترة ما قبل الإسلام

(١) علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق، جـ٤، ١٤٢.
(٢) الراشد، سعد، وآخرون. آثار منطقة مكة المكرمة، مرجع سابق، ١٦٢، ١٦٣.
(٣) سلامة، عواطف. قريش قبل الإسلام، مرجع سابق، ٣٠.
(٤) علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق، جـ٤، ١٤٤.
(٥) الراشد، سعد، وآخرون. آثار منطقة مكة المكرمة، مرجع سابق، ٨٠، ١٦٢، ٢٠١.



نقش في حي النمور بمحافظة الطائف

في عدد آخر من المواقع، فقد حصرت بعثة مسح الرسوم والنقوش الصخرية التابعة لوكالة الآثار والمتاحف في موسمها الخامس عام ١٤١٠ هـ/١٩٨٩م[١] سبعة عشر موقعاً في نطاق الطائف تحوي رسوماً ونقوشاً صخرية يؤرخ أقدمها من فترة العصر الحجري الحديث في أحياء النمور وأم السباع ومنطقة ثلاثاء[٢]، وبعضها من العصر البرونزي، خصوصاً تلك التي في موقع العرفاء. كما عثر أيضاً على رسوم صخرية أخرى من عصور ما قبل الإسلام في عدد من المناطق بالطائف منها ضرس ماضب ووادي مريع[٣].

وتتحدث المصادر التاريخية عن أنه كانت تتجسد في الطائف واحدة من أشهر عبادات الشرك في الجاهلية، تتمثل في صخرة (اللات)[٤] التي بني بجوارها معبد كانوا يقصدونه هم وغيرهم من بعض العرب الآخرين للتبرك وأداء النذور، ومن المرجح أن هذا المعبد هو نفسه الذي همّ أبرهة أثناء غزوه مكة المكرمة بهدمه لولا أن خرج إليه مسعود بن معتب ومعه نفر من ثقيف، وأخبروه بمقولتهم المشهورة: «أيها الملك إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون، وليس بيتنا هذا بالبيت الذي تريد، إنما تريد البيت الذي بمكة المكرمة، ونحن نبعث معك من يدلك عليه»[٥]، وبذلك حافظ أهل الطائف على بيتهم، بيد أن ذلك لم يدم طويلاً، فقد هدم هذا البناء وحطمت الصخرة البيضاء من أسفله، بعد دخول أهل الطائف في الإسلام[٦]، وذلك على يد بعثة أرسلها النبي ﷺ بقيادة خالد بن الوليد[٧].

وفي ضوء رواية هذه المصادر يتضح أن الطائف كانت منذ نهاية الألف الثاني وبداية الألف الأول قبل الميلاد حتى ظهور الإسلام مع مشارف القرن السابع الميلادي موطناً للكثير من بطون القبائل العربية بالتعاقب[٨]، بدءاً من بعض بني قينان، ويقال إنهم أول من غرسوها وعمروها، ثم من بعدهم بطون من الثموديين، ثم من قبيلة إياد ومن بعدهم

(١) عبدالرحمن كباوي، وآخرون، «تقرير مبدئي عن مسح الرسوم والنقوش الصخرية (الطائف/الباحة)»، الموسم الخامس ١٤١٠ هـ، *أطلال*، وكالة الآثار والمتاحف، ع١٣، (الرياض: ١٤١١ هـ/١٩٩٠م)، ٤١ - ٥١.

(٢) ناصر بن علي الحارثي، *المعجم الأثري لمنطقة الطائف*، (الطائف: لجنة المطبوعات في التنشيط السياحي بمحافظة الطائف، ١٤٢٣ هـ/٢٠٠٣م)، ٢٦.

(٣) المرجع السابق، ٧٣، ١٣١.

(٤) Höfner, M. Die Stammesgruppen Nor-und Zentralarabiens in Vorislamischer Zeit, Voerterbuch der Mythologie, ed. H. W. Haussig Stuttgart: Ernst Klet Verlag, 1965, p 422.

(٥) الأزرقي، محمد بن عبدالله بن أحمد. أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، مرجع سابق، ٦٧.

(٦) علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق، جـ٤، ١٤٥.

(٧) الحارثي، ناصر. المعجم الأثري لمنطقة الطائف، مرجع سابق، ١٠٨.

(٨) الراشد، سعد، وآخرون. آثار منطقة مكة المكرمة، مرجع سابق، ٥٢.



سد السملقي بمحافظة الطائف

قبيلة بني عدوان بن عمرو بن قيس بن عيلان بن مضر، ثم غلبهم عليها بنو عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن[١]، ثم من بعدهم ساد فيها بنو ثقيف وهم جل أهل الطائف في فترة ما قبل الإسلام، وقد كان يساكنهم فيها ـ آنذاك ـ بعض القرشيين من كنانة وبعض بني عذرة ومزينة وهوازن وجهينة، والقليل من الأوس والخزرج[٢].

كما كان أهل الطائف منذ القدم حلفاء لأهل مكة المكرمة[٣]، فقد كانت منطقتهم المصيف القريب لأهل مكة المكرمة وموضع راحتهم ومقراً لبعض حدائقهم ومزارعهم. واستمر ذلك في صدر العصر الإسلامي، وحتى يومنا هذا، وينسب إلى عمرو بن العاص امتلاك مزرعة كروم ضخمة في الطائف، كانت تضم ما يقرب من ألف تكعيبة أو عريش[٤].

كانت الطائف منذ القدم منطقة زراعية متميزة ينتشر في أرجائها كثير من الحقول والمدرجات التي سويت وأعدت واستصلحت لزراعة أنواع كثيرة من النباتات، حتى ورد أنها كانت تحتوي على عدد من السدود وصل إلى سبعين سداً[٥]، وذلك لتجميع مياه الأمطار والمياه الجوفية، بقي منها حتى اليوم نحو ثلاثين سداً[٦]. من أقدمها سد السملقي الذي يعود تاريخ بنائه إلى نهايات الألف الثاني وبدايات الألف الأول قبل الميلاد، وهو سد حجري ضخم يمتد لمسافة مئتي متر طولاً، ويبلغ سمكه نحو عشرة أمتار[٧]. فضلاً عن بعض القنوات التي شقت لتصريف مياه السيول الزائدة، أو المياه المتخلفة عن بعض الصناعات التي راجت في المنطقة منذ أقدم العصور، ومنها صناعة دباغة الجلود التي اشتهرت بها الطائف قبل الإسلام، وتذكر بعض المصادر أن النعمان بن المنذر ملك الحيرة كانت له عادة سنوية تتمثل في إرسال إحدى قوافل تجارته المحملة بالحبوب والمسك إلى سوق عكاظ الذي كان ينعقد في ربوع الطائف لبيعها فيه، ومن ثم يشتري بثمنها كمية كبيرة من أدم الطائف

(١) علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق، جـ٤، ١٤٥ ـ ١٤٨.

(٢) سلامة، عواطف. قريش قبل الإسلام، مرجع سابق، ٣٠.

(٣) إبراهيم بيضون. *الحجاز والدولة الإسلامية : دراسة في إشكالية العلاقة مع السلطة المركزية في القرن الأول الهجري*، (بيروت: دار النهضة العربية، ١٤١٦ هـ/١٩٩٥م)، ٣٨.

(٤) سلامة، عواطف. قريش قبل الإسلام، مرجع سابق، ٣١.

(٥) الراشد، سعد، وآخرون. آثار منطقة مكة المكرمة، مرجع سابق، ٢١.

(٦) الحارثي، ناصر. المعجم الأثري لمنطقة الطائف، مرجع سابق، ٤٩ ـ ٦١.

(٧) وكالة الآثار والمتاحف. مقدمة عن آثار المملكة، مرجع سابق، ٢٩ ـ ٣٥.

الجيد، لكي يستخدمه النعمان في أثاث جياد فرسانه وسروجها وملابس جنده ونعالهم، وغير ذلك من الصناعات الجلدية اللازمة لبلاطه وربوع دولته.

لقد اشتهرت الطائف بجودة منتوجاتها الزراعية، وكانت الكروم من أهم منتجاتها الزراعية، وعليها قامت قبل الإسلام صناعة النبيذ، كما تميزت أيضاً بزراعة عدد من أنواع الفواكه والنباتات ذات الاستخدامات الطبية التي كان أهل الطائف يستجلبون أشجارها من بلاد الشام[١] ومن غيرها من البلدان. كذلك تبوأت الطائف شهرة بارزة في صناعة التعدين، خصوصاً الأواني المعدنية التي كانت تتركز صناعتها في المناطق الجنوبية من الطائف.

ب ـ جدة:

تقع جدة في سهل تهامة، وهي ميناء مهم على ساحل البحر الأحمر (بحر القلزم قديماً)، وتشير الدلائل الآثارية إلى أن المدرجات والأودية الساحلية في جدة وجوارها كانت مكاناً للاستيطان منذ العصر الآشولي الأوسط، أي قبل نحو ربع المليون من الأعوام، كما تعكسه الأدوات الحجرية الموستيرية في بعض المواقع الأثرية القريبة من جدة[٢]، وكذلك تلك الرسوم الصخرية على الجبال المحيطة في جدة، مثل جبل الرديهة الواقع على مسافة ٢٠ كم شمالي جدة[٣] التي تصور أشخاصاً وحيوانات من فصائل مختلفة، على أن المنطقة كانت مأهولة في العصور القديمة بمجتمعات من الرعاة والصيادين الذين امتد نشاط بعضهم إلى صيد الأسماك والكائنات البحرية الأخرى. كما تؤكد تلك الرسوم الصخرية في جبل القصب[٤] ـ الواقعة على بعد ٦٠كم جنوب شرقي جدة والمنتمية إلى العصر الحجري الحديث والعصر البرونزي، أي من الفترة بين بدايات الألف السادس ومنتصف الألف الثاني قبل الميلاد تقريباً ـ تواصل الاستيطان في جدة والمواقع القريبة منها.

ومنذ بداية الألف الأول قبل الميلاد تبلور الدور التجاري لجدة بوصفها ممراً ساحلياً تعبره القوافل البرية[٥] قبل أن تتبوأ دورها الشهير لتصبح ميناءً مهماً على ساحل البحر الأحمر. وتروي بعض الأخبار التي يحوطها الشك، عن زيارة قام بها الإسكندر المقدوني في الربع الأخير من القرن الرابع قبل الميلاد إلى البيت الحرام، وأن السفينة التي أقلته في تلك الرحلة قد رست في جدة[٦]. وأياً كان مدى صدق هذه الرواية من عدمه، فهي تشير إلى ما تواتر لدى الأقدمين عن دور جدة في أنها ميناء للسفن الكبيرة منذ منتصف الألف الأول قبل الميلاد، وليس فقط مرفأً لمراكب الصيد الصغيرة التي كانت تستخدم في عمليات الصيد البحري، وكانت تشكل جانباً مهماً من قوام حياة الجماعات البشرية في المنطقة. كما لا يستبعد كذلك أن الميناء قد قام بدور ما في التواصل بين سكان الضفتين الشرقية والغربية للبحر الأحمر، ذلك الذي تشير الأدلة الأثرية إلى وجوده منذ القدم، خصوصاً في ظاهرة التأثير والتأثر بين المناطق الغربية من الجزيرة العربية ووادي النيل.

سكنت قبائل قضاعة أودية جدة وشعابها وسهولها، وبعد هجرة الخزاعيين من جنوب الجزيرة العربية إلى منطقة مكة المكرمة استوطن بعض بطونها في جدة[٧]، وقد ورد

(١) علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق، جـ٤، ١٥١.
(٢) الراشد، سعد، وآخرون. آثار منطقة مكة المكرمة، مرجع سابق، ٢٢٦.
(٣) المرجع السابق، ٢٠١.
(٤) نورمان، م.، وآخرون، «مجموعة من المواقع في جدة ووادي فاطمة»، أطلال، مرجع سابق، ع١١، ١٠٠، ١٠١.
(٥) الراشد، سعد، وآخرون. آثار منطقة مكة المكرمة، مرجع سابق، ٢٠١.
(٦) سلامة، عواطف. قريش قبل الإسلام، مرجع سابق، ٣٢.
(٧) الراشد، سعد، وآخرون. آثار منطقة مكة المكرمة، مرجع سابق، ٥٢.

في بعض الروايات أن بعض أكاسرة الفرس في منتصف الألف الأول الميلادي[١] قد اهتموا بجدة، وجعلوها أحد مراكزهم التجارية المهمة، بل بنوا من حولها سوراً وأحاطوها بخندق لحمايتها، وفي ذلك دليل على ثراء المنطقة.

ج ـ الليث:

الليث محافظة ساحلية تقع جنوبي مكة المكرمة، وهي تتكون من سهول منخفضة في غربيها عند ساحل البحر الأحمر ومرتفعات جبلية في الشرق تمتد من الشمال إلى الجنوب، وقد عثر في أحد المواقع على السهل الساحلي بالقرب من الليث على سبع أدوات حجرية من العصر الآشولي يتجاوز تاريخها ٢٠٠,٠٠٠ عام قبل الزمن الحاضر[٢]. كما عثرت بعثات المسح الآثاري بالمنطقة على تلال أثرية بمحاذاة الشاطئ، وبما يدل على بقايا موانئ أو ربما مدينة ساحلية قديمة بالمنطقة، فضلاً عما سجلته البعثة نفسها من نقوش صخرية كثيرة في المنطقة، تتركز في تسعة عشر موقعاً مختلفاً، تقع كلها ضمن النطاق الجغرافي لمحافظة الليث، وتحوي بعضها صوراً لمشاهد قتالية لأشخاص في حال عراك فيما بينهم، وبعضها الآخر يجسد تصاوير للشمس والنجوم، ما يشير إلى أنماط من الحياة والمعتقدات الدينية القديمة لسكان المنطقة قبل ظهور الإسلام.

سادساً ـ تطور التجارة:[*]

تؤكد أدلة الشواهد الأثرية والتاريخية أن عبقرية التجارة وموهبتها كانتا تجريان في عروق أهل جزيرة العرب منذ القدم[٣]، وقد تبوأ أهل مكة المكرمة مكانة بارزة فيها، فقد أتاح الموقع المتميز لمكة المكرمة ـ بوجه خاص ـ على


سور مدينة جدة

مفترق طرق القوافل التجارية لمعظم أهل مكة المكرمة وقاطنيها مصدراً دائماً ومضموناً للربح والتكسب، إذ راوح بين الأرباح الباهظة لسادتهم وكبارهم، واكتساب القوت الطيب للموالي والعبيد الذين عاشوا في كنف أولئك السادة.

ولا ريب كذلك في أن وجود البيت الحرام في مكة المكرمة، قد فرض على أهلها ـ آنذاك ـ مراعاة حرمة المال والدم لمن كانوا يقدمون على البيت زوَّاراً وعمَّاراً، فأدى ذلك مع مرور الوقت إلى اختلاف سكان مكة المكرمة عن معظم القبائل ـ آنذاك ـ فيما استحلوه من غزو غيرهم وسفك دمائهم وغصبهم فيما يملكون من مال وعرض[٤]، وقد أدى ذلك إلى أن يضع أهل مكة المكرمة جلَّ همهم وجهدهم في التجارة ابتغاء الكسب الطيب والعيش الرغيد بعيداً عن السلب والنهب، ما أسهم في رفع مكانتهم وعلو كلمتهم بين قبائل العرب.

وزاد من الأهمية التجارية لمنطقة مكة المكرمة وقوعها على الطريق الرئيس لتجارة

(١) سلامة، عواطف. قريش قبل الإسلام، مرجع سابق، ٣٢، ٣٣.

(٢) أليستر كيليك، وآخرون، «التقرير المبدئي عن مسح المنطقة الغربية»، *أطلال*، وكالة الآثار والمتاحف، ع٥، (الرياض: ١٤٠١ هـ/١٩٨١م)، ٤٠، ٤١.

(٣) السعيد، سعيد فايز. العلاقات الحضارية بين الجزيرة العربية ومصر في ضوء النقوش العربية القديمة، مرجع سابق، ١١٥.

(٤) حمدان عبدالحميد الكبيسي، *أسواق العرب التجارية*، (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٩م)، ٦، ٧.

(*) انظر: الباب الثالث، (الآثار والمواقع التاريخية): الفصل الثاني.

البخور والتوابل وغيرها من الخامات الثمينة آنـذاك[١]، ذلك الطريق الذي كان يبدأ من مراكز إنتاج هذه الخامات الثمينة ومن موانئ استيرادها في جنوب جزيرة العرب[٢]، ثم يمضي من شبوة حاضرة حضرموت إلى تمنع القتبانية ثم إلى مأرب السبئية وقرنا المعينية، ثم يتجه إلى نجران حيث يتفرع شرقاً ليصل عبر شرق الجزيرة العربية إلى بلاد النهرين وفارس، وغرباً مروراً بمنطقة تثليث ثم الطائف فمكة المكرمة، ومن بعدهما يثرب والعلا وتيماء وصولاً إلى دول حوض البحر الأبيض المتوسط ومناطقه في الشمال[٣]. ومما عزز من أهمية مكة المكرمة التجارية هو اشتهارها بمنتجات تجارية منها التمور والزيت والصوف والوبر والسمن والعسل والنبيذ والسيوف وغيرها[٤]. وبالإضافة إلى ذلك فإن التجارة التي تمر بمنطقة مكة المكرمة منذ القدم[٥] لم تكن مقصورة على منتجات الجزيرة العربية وحدها، بل عَرفَت كذلك ما يمكن أن يدعى وفق المفاهيم الحديثة باسم تجارة الترانزيت أو (تجارة العبور) في جميع البضائع الأخرى الواردة من جميع البلدان شرقاً وغرباً، ومنها الواردات الهندية كالذهب والأحجار الكريمة والعاج وخشب الصندل ومنسوجات الحرير والمنتجات المعدنية، وكذلك بعض حاصلات التجارة من بلاد شرقي إفريقية مثل خشب الأبنوس والجلود والفراء وغيرها.

والحقيقة التاريخية أن المكيين حافظوا على ازدهار تجارتهم في ظل ما أصاب جزيرة العرب خلال فترة قبيل الإسلام من تفكك سياسي وغياب للسلطة المركزية فيها، خصوصاً بعد احتلال الفرس لليمن ونشوب الحروب الطاحنة بين الرومان والفرس، وتداعيات ذلك على تزعزع قوة الممالك العربية الحاجزة (مملكتا الحيرة وغسان) في شمال الجزيرة العربية. وعلى الرغم من ذلك فإن مكانة مكة المكرمة التجارية لم تتزعزع، بل زادت مع مرور الوقت، وتبوأت مكانة تجارية بارزة، ما كان له الأثر البالغ في ثراء سكانها وتضخم رؤوس أموالهم.

من هنا يمكن القول إن تجارة مكة المكرمة في بداية الأمر كانت ذات طابع محلي، فقد كانت تقوم بشكل أساسي على حمولات القوافل التي اعتاد أصحابها القدوم إلى المنطقة لزيارة البيت الحرام، أو لممارسة طقوس العبادات من حوله في مواسمها الدينية المتكررة، وكذلك تلك البضائع التي كانت تصل لبعض الأسواق ذات الصيت بمنطقة مكة المكرمة، لاسيما خلال الأشهر الحرم[٦] التي جرت العادة خلالها على منع إغارات اللصوص وقطاع الطرق، أو تلك القوافل الزائرة إلى أسواق بعينها، مثل قوافل النعمان بن المنذر إلى الطائف أيام انعقاد سوق عكاظ، أو تلك القاصدة سوق ذي المجاز وغيرها.

ولكن هذا الحال سرعان ما تغير خلال عهد سيد قريش هاشم بن عبدمناف الذي انتقل بتجارة مكة المكرمة من مرحلة الجمود وانتظار القوافل القادمة إليها، إلى مرحلة من الحركة والنشاط الدؤوب، والانطلاقة الكبرى من المحلية إلى العالمية وما وراء حدود شبه جزيرة العرب[٧]. ففي تلك الفترة أرسيت مجموعة من التوافقات والتفاهمات التي لم تكن جميعها بالضرورة اتفاقيات مكتوبة أو معاهدات موقعة، ولكنها تندرج ضمن ما يمكن أن يطلق عليه سياسة (الإيلاف) التي أشير إليها في القرآن الكريم

(١) الراشد، سعد، وآخرون. آثار منطقة مكة المكرمة، مرجع سابق، ٣٢، ٣٣.

(٢) عبدالله سعد الراشد، وآخرون، «تقرير مبدئي عن أعمال مسح الطريق التجاري القديم: طريق الحج اليمني الأعلى - النجدي»، الموسم الثاني، *أطلال*، وكالة الآثار والمتاحف، ع١٦، (الرياض: ١٤٢١ هـ/٢٠٠١م)، ١٠٥.

(٣) السعيد، سعيد فايز. العلاقات الحضارية بين الجزيرة العربية ومصر، مرجع سابق، ١٤، ١٥.

(٤) الراشد، سعد، وآخرون. آثار منطقة مكة المكرمة، مرجع سابق، ٣٧.

(٥) تذكر بعض الأخبار المبالغ فيها أن شهرة قريش بالتجارة ترجع إلى أيام العرب البائدة، قبل زمن النبي إبراهيم عليه السلام؛ انظر: علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق، جـ٤، ١٩.

(٦) الكبيسي، حمدان. أسواق العرب التجارية، مرجع سابق، ٥.

(٧) بيضون، إبراهيم. الحجاز والدولة الإسلامية، مرجع سابق، ٦٨.

﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾[١]، فكانت هذه السياسة التي سنَّها هاشم بن عبدمناف، حين سعى بجسارة في أول الأمر إلى أخذ عهد مكتوب بالأمان من قيصر الروم[٢]، أو على الأرجح من أحد وزرائه أو ولاته أو كبار قادته[٣]، لضمان تدفق تجارة قريش مع بلاد الشام، ثم شجع ذلك الاتفاق القرشيين على ما تلاه من إيفاد المطلب بن عبدمناف إلى ملوك اليمن، وعبدشمس بن عبدمناف إلى ملك الحبشة ونوفل بن عبدمناف إلى أكاسرة الفرس[٤]. واستتبع ذلك الاتفاق على تأمين التجارة مع رؤساء القبائل العربية وعدد من شيوخ قبائل مناطق وسط الجزيرة وأطرافها الشمالية على مشارف الشام، ومع بعض حكام ممالك جنوب الشام ذاته[٥]، وكذلك مع زعماء القبائل والعشائر، الواقعة جنوبي مكة المكرمة حتى اليمن، في مقابل منح بعضهم ما يرضيهم من عروض التجارة، أو في مقابل تقديم خدمات إضافية لهم واستضافة قومهم وتيسير تجارتهم في مكة المكرمة خلال موسم الحج. وهكذا كان ولد عبدمناف هم أول من حصل لقوافل قريش ومسافريها على ما دعي - آنذاك - (العصم) أو (الحبال)[٦]؛ أي الأمان والمواثيق، فكانت هذه السياسة ذات صدى كبير في تدعيم مكانة أهل مكة المكرمة الشرفية والتجارية. فقد ترتبت القوافل في مسارات موسمية محددة ومأمونة[٧]، أشهرها رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام.

لقد تم ذلك بتفاهم جميع الأطراف على النفع المشترك والصالح العام الذي يعود بالخير والأمان على الجميع، وبموجبه منحت عروض التجارة لهم نوعاً فريداً من (الحصانة)، ونتج من ذلك المناخ الاقتصادي تطور كبير شهدته التجارة، تمثل في اتجاهين رئيسين: أولهما: تسيير التجارة البعيدة المدى والقاصية المسافات[٨]، ما أدى إلى اتساع علاقات أهل مكة المكرمة وزيادة مكانتهم ومنزلتهم بين الأمم والشعوب، وثانيهما: ما انعكس على ذلك التضخم الكبير الذي شهدته القوافل سواء من حيث عدد جمالها أو من حيث قيم حمولاتها وأثمانها، إذ بلغ متوسط عدد إبل القافلة الواحدة الكبيرة ما يراوح بين ألف وألف وخمسمئة بعير، كانت تحمل بضائع معدل قيمتها في حدود المليون من الدنانير الذهبية الفارسية أو الرومانية المعمول بها في تلك الأيام[٩].

كان من بين أهم الأنظمة التجارية الجديدة التي سنَّها هاشم، قبول مشاركة أي فرد مهما كان فقيراً في رأس مال قوافل مكة المكرمة الغادية[١٠] وإعطاؤه مقابل سهمه في الربح مهما صغر، ما أدى إلى ظهور نوع من التكافل بين الكبير والصغير لم يعرفه أهل مكة المكرمة من قبل[١١].

وسعى بعض بني عبدمناف الآخرين إلى استكمال جهود (الإيلاف) التي بدأها هاشم، ومنهم نوفل بن عبدمناف الذي عاهد عرب الأنبار والحيرة وما وراءهم من بلاد النهرين. وبسبب هذه الجهود الحثيثة المتواصلة لم تلبث تجارة قريش المتنامية - آنذاك - أن تجاوزت النطاقات الجغرافية لجزيرة العرب، بل جواراتها الشهيرة كالشام في الشمال واليمن في الجنوب، فتعدت ذلك إلى بلاد

(١) سورة قريش.

(٢) ناصر بن سعد الرشيد، «تعامل العرب التجاري وكيفيته في العصر الجاهلي»، *دراسات تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الثاني: الجزيرة العربية قبل الإسلام*، (الرياض: جامعة الملك سعود، ١٤٠٤ هـ/١٩٨٤م)، ٢٢٤.

(٣) علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق، جـ٤، ٦٧، ٦٨.

(٤) الأنصاري، عبدالرحمن، «الأحوال العامة للجزيرة العربية عند البعثة النبوية»، دراسات تاريخ الجزيرة العربية، مرجع سابق، ١٥.

(٥) الكبيسي، حمدان. أسواق العرب التجارية، مرجع سابق، ٦.

(٦) المرجع السابق، ٦ - ٧.

(٧) الراشد، سعد، وآخرون. آثار منطقة مكة المكرمة، مرجع سابق، ٣٤.

(٨) الكبيسي، حمدان. أسواق العرب التجارية، مرجع سابق، ٦.

(٩) الراشد، سعد، وآخرون. آثار منطقة مكة المكرمة، مرجع سابق، ٣٤ - ٣٩.

(١٠) علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق، جـ٤، ٦٩، ٧٠.

(١١) سلامة، عواطف. قريش قبل الإسلام، مرجع سابق، ٢٣٣.

الروم شمالاً وفارس شرقاً، فضلاً عن مصر غرباً والحبشة جنوباً[١].

وهكذا تعززت منذ تلك الفترة المكانة الكبيرة لأهل مكة المكرمة عامة، وبني عبد مناف على نحو خاص، في تجارة مكة المكرمة الخارجية، الأمر الذي جعل شاعرهم يمجد ذلك بقوله[٢]:

يا أيها الرجل المحوّل رحله

هلا حللت بآل عبدمناف

الآخذين العهد في إيلافهم

والراحلين برحلة الإيلاف

سابعاً ـ الأسواق:[*]

كان التنقل والترحال قوام حياة معظم القبائل العربية قبل الإسلام، وكانت تدفعهم إلى ذلك عوامل البحث عن الرزق وتسيير أمور الحياة في مختلف فترات العام، نظراً لما تشهده بيئتهم من ظروف مناخية متباينة، وشح في الماء والكلأ لا يستقر على حال، يحكم أوقات حلهم وترحالهم وأمكنتها، فضلاً عن عوامل أخرى يمكن وصفها حسب المفاهيم الحديثة بأنها ذات طبيعة أمنية أو إستراتيجية.

وتوافقاً مع هذه المعطيات وغيرها مثل المواءمة مع أعياد ومناسبات دينية أو محلية معينة[٣]، أو ترويج بضائع موسمية بعينها قد تتلف بالتخزين الطويل، كانت تعقد الأسواق في جزيرة العرب في أمكنة محددة وبشكل موسمي، ويختلف امتداد كل منها بحسب عوامل مختلفة، منها أهمية مكانها وكثرة قصّادها ووفرة البضائع التي ترد إليها. وكانت هذه الأسواق تنعقد غالباً على مفارق طرق القوافل الرئيسة المتعارف عليها لدى القبائل، وبالقرب من بئر أو نبع ماء شهير في منطقتها، رغبة في تأمين الماء الضروري لحياة التجار ودوابهم على حد سواء[٤].

لقد حصر بعض الباحثين ما يقرب من ثلاثين سوقاً من أسواق العرب في عصور ما قبل الإسلام[٥]، منها ما قد يقتصر دورها على النطاق الجغرافي الضيق لبعض القبائل والعشائر، كسوق الثعلبية والأحساء وغيرها التي تكون غالباً أسواقاً للمقايضات والتبادلات المحلية لمنتجات البيئة المحدودة أو ما يصل إلى تلك المناطق من قوافل صغيرة يتولاها سكان المنطقة أنفسهم، وبما ينعكس على قلة المعروض بمثل هذه الأسواق وقصر فترات انعقادها وندرة من يؤمها من غير أهل مناطقها. غير أن هناك من الأسواق العربية القديمة الأخرى ما ذاع صيتها واتسعت شهرتها، ما جعلها تعد أسواقاً عامة ينتظر انعقادها ويعرف دورها وتأثيرها الاقتصادي والاجتماعي، بل السياسي أيضاً، حتى أنه يفد إليها القاصي والداني من سائر أنحاء جزيرة العرب وخارجها[٦].

وبحكم الموقع المميز لمنطقة مكة المكرمة بين اليمن والشام، ومرور الطريق التجاري القديم عبر أراضيها، فقد تبوأت مكة المكرمة مكانة تجارية بارزة، وانتشر في أرجائها عدد من الأسواق من أهمها عكاظ ومجنّة ومكة المكرمة ومنى وذو المجاز وحباشة وغيرها[٧]. وقد كانت هذه الأسواق تنعقد جميعها في أوقات لها ارتباط بموسم الحج ومواقيته، خلال شهري ذي القعدة وذي الحجة، وهي الفترة التي تشهد قدوم جموع الناس إلى مكة المكرمة من كل الفجاج، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في

(١) الكبيسي، حمدان. أسواق العرب التجارية، مرجع سابق، ٦، ٧.

(٢) علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مرجع سابق، جـ٤، ٦٩.

(٣) الكبيسي، حمدان. أسواق العرب التجارية، مرجع سابق، ١٤ ـ ١٧.

(٤) المرجع السابق، ٢٩.

(٥) سعيد الأفغاني، *أسواق العرب في الجاهلية والإسلام*. ط٢، (القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، ١٤١٣ هـ/١٩٩٣م)، ١٤، ٧٩، ٢٢٦، ٢٢٧.

(٦) مؤنس، حسين. تاريخ قريش: مرجع سابق، ١٣٥، ١٣٦.

(٧) الكبيسي، حمدان. أسواق العرب التجارية، مرجع سابق، ٢٤.

(*) انظر: الباب الثالث، (الآثار والمواقع التاريخية): الفصل الثاني؛ والباب التاسع، (السياحة والتنزه): الفصل الأول.

أيام معلومات، وبعضها في أيام الحج ذاتها مثل سوقي مكة المكرمة ومنى[١]. وتعد أسواق منطقة مكة المكرمة من أشهر وأوسع أسواق العرب قاطبة، كما كانت هذه الأسواق، نظراً لانعقادها في الأشهر الحرم، ملاذاً آمناً للمطلوبين في الثأر يأوون إليها طالبين الجوار من أشراف مكة المكرمة ووجهائها الذين كانوا ـ آنذاك ـ يتدخلون غالباً بين القبائل المختلفة للصلح وفداء الأسرى وتسوية أمور الديات المعلقة[٢]. ليس ذلك فحسب بل إن بعض أسواق منطقة مكة المكرمة أصبحت مع مرور الوقت منارات فكرية وثقافية يقصدها فحول الشعراء والبلغاء والخطباء من كل حدب وصوب في جزيرة العرب نفسها ومن خارجها. ومن أشهر أسواق منطقة مكة المكرمة:

أ ـ سوق عكاظ:

يقع المكان القديم لهذه السوق التاريخية الشهيرة إلى الجنوب الشرقي من مكة المكرمة، وشمال شرقي الطائف بمسافة ١٠ كم[٣]. وقد قامت سوق عكاظ بدور مهم في الحياة الاقتصادية للطائف خاصة ولمنطقة مكة المكرمة عامة منذ عصور ما قبل الإسلام، فضلاً عن أدوارها المختلفة في كل جوانب الأدب والثقافة والتاريخ والدعاية والإعلام وغيرها من الجوانب المؤثرة في حياة العرب والمثرية لوجدانهم والمشبعة لاحتياجاتهم الروحية والفكرية، وذلك منذ نشأتها الأولى في نهايات القرن الخامس الميلادي[٤].

وقد استمرت سوق عكاظ تؤدي دوريها الفكري والاقتصادي طوال ما يقرب من ثلاثة قرون، حتى نهبت من قبل بعض طوائف الخوارج الحرورية بزعامة المختار بن عوف عام ١٢٩ هـ/٧٤٧م[٥]، فلم تقم لهذه السوق بعد ذلك قائمة.

وتعد سوق عكاظ من أهم أسواق العرب المنتظمة، فقد كانت القوافل تتجهز لها وتشرع في قصدها بعد انفضاض سوق صنعاء التي كانت تنعقد خلال النصف الثاني من شهر رمضان[٦]، وكان يؤم عكاظ عدد من أكبر قبائل العرب، مثل: قريش وخزاعة وغطفان وهوازن والمصطلق وغيرها، وتجلب إليها البضائع الثمينة من أنحاء جزيرة العرب كافة، فضلاً عن واردات مختلف بلدان الإيلاف[٧].

كان موعد انعقاد سوق عكاظ في شهر ذي القعدة من كل عام، وقيل في تحديد ذلك إن موعدها المعلوم كان إما في النصف الثاني منه حتى أول ذي الحجة، أو في الفترة من أول ذي القعدة وحتى العشرين منه[٨]. ويبدو أن التحديد الثاني أقرب إلى الصواب، نظراً لأن موعد بدء سوق مجنّة المجاورة كان بعد انتهاء سوق عكاظ مباشرة بين العشرين والثلاثين من ذي القعدة[٩]. وتجدر الإشارة إلى أن سوق عكاظ علاوة على انعقادها في أيام معلومة وفي موسم محدد، إلا أن السوق كانت تنعقد في أيام الآحاد من كل أسبوع وعلى مدار العام بأكمله، ولكن بشكل مصغر من أجل تلبية احتياجات أهل الطائف وما حولها من المواد الضرورية ومستلزمات الحياة المعيشية[١٠].

تميزت سوق عكاظ عن غيرها من الأسواق العربية المهمة الأخرى في ذلك الوقت بميزتين رئيستين ونادرتين في الوقت نفسه: أولاهما أنها لم تكن تفرض فيها العشور أو رسوم الخفارة (أي مقابل الحراسة) على البضائع التجارية المعروضة فيها. فقد كانت

(١) الأفغاني، سعيد. أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، مرجع سابق، ٢٢٦، ٢٢٧.

(٢) الكبيسي، حمدان. أسواق العرب التجارية، مرجع سابق، ٢٦، ٢٧.

(٣) راجع خريطة موقع السوق عند: الحارثي، ناصر. المعجم الأثري لمنطقة الطائف، مرجع سابق، ٧١، لوحة رقم ٧٧.

(٤) الأفغاني، سعيد. أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، مرجع سابق، ٣٤٢، ٣٤٣؛ سلامة، عواطف. قريش قبل الإسلام، مرجع سابق، ٢٢٣.

(٥) الراشد، سعد، وآخرون. آثار منطقة مكة المكرمة، مرجع سابق، ٢٠٨.

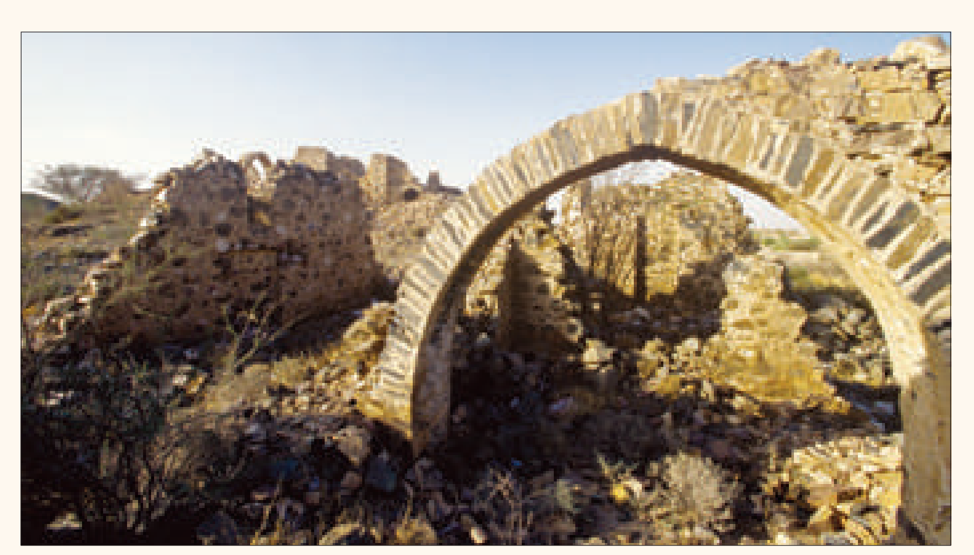
(٦) الأفغاني، سعيد. أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، مرجع سابق، ٢٧٣.

(٧) الكبيسي، حمدان. أسواق العرب التجارية، مرجع سابق، ٢٢.

(٨) الأفغاني، سعيد. أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، مرجع سابق، ٢٢٤.

(٩) المرجع السابق.

(١٠) الكبيسي، حمدان. أسواق العرب التجارية، مرجع سابق، ٢٣.



موقع سوق عكاظ

العشور من كامل البضائع وعروض التجارة عرفاً في غيرها من الأسواق العربية القديمة، دون أسواق الحجاز ووسط جزيرة العرب[١]، يجبيها ملوك المناطق وحكامها لأنفسهم[٢]، نظير حماية التجار وبضائعهم وتأمين مرورهم وتوفير مستلزمات إقامتهم من طعام وشراب وغير ذلك. وفي هذا دليل آخر على مكانة أهل مكة المكرمة في العرب، حتى لا يتعرض لبضائعهم أو لبضائع من يقصد أسواقهم، كما أن ذلك شاهد على الحالة السياسية في منطقة مكة المكرمة في تلك الفترة، وإقرار لواقع السيادة (الشمولية) لرؤساء عشائرها من غير انفراد أحدهم بالسلطة المطلقة دون الآخر، ليصبح ملكاً متوجاً أو حاكماً منفرداً، يطالب بحقه وحده في العشور.

أما الميزة الثانية التي تنفرد بها سوق عكاظ، فهي اعتبارها مجمعاً أدبياً شعرياً لغوياً متفرداً، كانت تتخذ طابعاً عاماً رسمياً، ويحكّم فيها محكمون محترفون لمن يقصدونها لإظهار مهاراتهم اللغوية والتباري بقصائدهم ومقدرتهم الشعرية، منتهزين فرصة قدوم الألوف الكثيرة من الناس إليها من كل حدب وصوب قبيل توجههم إلى مكة المكرمة في موسم الحج، فيعتلي من يريد منهم أحد المنابر المعدة للخطباء والشعراء في ساحة السوق ليتحدث ويخبر عن مآثر أهله وقومه شعراً أو نثراً[٣]، ويضمِّن قصيدته أو كلمته آخر ما حدث في قومه من مواطن الفخر[٤] والعزة أو النصر والغلبة على الآخرين، ومن ثم تتناقله الألسنة في البوادي والحواضر في أرجاء جزيرة العرب كلها، ويصير فخراً لصاحبه ولقومه. وكان من المعتاد في سوق عكاظ أن تُضْرَب القباب والخيام في ساحة السوق، سواء لإقامة وجهاء القوم وكبار التجار، أو للمحكمين الذين يعرض أمامهم المتبارون من الوفود شعرهم وخطبهم[٥]، وفي ذلك قال أحد شعرائهم[٦]:

إذا ضربوا القباب على عكاظ

وقام البيع واجتمع الألوف

(١) الكبيسي، حمدان. أسواق العرب التجارية، مرجع سابق، ٢٦.

(٢) المرجع السابق، ١٩، ٢٠.

(٣) المرجع السابق، ٢٢.

(٤) المرجع السابق، ٢٧.

(٥) الأفغاني، سعيد. أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، مرجع سابق، ٢٧٧.

(٦) هو: أبوذؤيب، والإشارة عند: الكبيسي، حمدان. أسواق العرب التجارية، مرجع سابق، ٢٢.

وهكذا لم تكن سوق عكاظ مناسبة أدبية، لها الأثر الكبير في اللغة العربية بألفاظها وتراكيبها وأساليبها فحسب[١]، بل مناسبة كبرى إعلامية وسياسية ودعائية كذلك، كانت العرب تتناقل فيها أخبارها وترد إليها كذلك أخبار غيرهم من الأمم التي قد تهمهم أو ترتبط بمصالحهم وصلاتهم مع الأمم والشعوب المجاورة في جزيرة العرب وخارجها[٢].

ب ـ سوق مجنّة:

تقع سوق مجنة بالقرب من مكة المكرمة، وقد اختلفت رواية المصادر في تحديد موقعها، فبعضها يرجح أنها تقع في ممر الظهران بالقرب من جبل الأسفل[٣]، وثمة من يرى أنها موضع الأثيداء جنوب شرقي مكة المكرمة[٤].

لقد كان التجار وكثير ممن يقصدون البيت للحج يفيضون على إثر انتهاء موسم سوق عكاظ في النصف الثاني من شهر ذي القعدة إلى سوق مجنة، حيث تنعقد هناك سوق أخرى خلال العشر الأخيرة من ذي القعدة[٥]، وتمارس فيها ضروب التجارة وفي مقدمتها تجارة الخمر التي كانت ترد إليها من بلاد الشام وفلسطين[٦].

ج ـ سوق ذي المجاز:

عندما تنتهي فترة سوق عكاظ نهائياً ومن بعدها سوق مجنّة بحلول شهر ذي الحجة، كان كثيرون من التجار المشاركين ينتقلون مباشرة بصحبة ما تبقى من بضائعهم إلى سوق أخرى من أسواق منطقة مكة المكرمة المرتبطة بموسم الحج، هي سوق ذي المجاز. وقيل في معنى اسمها الربط مع (إجازة)



موقع سوق ذي المجاز

النسك للحجاج، فهي تقع من حول جبل كبكب قرب عرفة، وكانت هذه الناحية قديماً من ديار هذيل[٧]، وكانت سوق ذي المجاز تنعقد ابتداءً من أول أيام شهر ذي الحجة[٨]، وتمتد فترة في حدود الأسبوع الواحد، حتى يوم التروية ٨ ذي الحجة. وكثيراً ما كان يفد إليها التجار والحجاج ممن لم يكونوا قد شهدوا سوق عكاظ قبلها[٩]، وقد اشتهرت هذه السوق في عصر الجاهلية ببعض ضروب اللهو والمجون[١٠]، كما كان بها سوق رائجة للسبي والرقيق، فمنها اشترى الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه غلامه أسلم الحبشي[١١]. كما كانت سوق ذي المجاز موضعاً لفداء الأسرى وأداء الديات وطلب الجوار، فضلاً عن المفاخرة والنسيب وغيرها من المجريات التي اشتهرت بها سوق عكاظ، وإن كانت أقل منها في هذا الشأن.

(١) الأفغاني، سعيد. أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، مرجع سابق، ٤١٠ ـ ٤١٢.

(٢) إن ما يدل على أهمية سوق عكاظ بخاصة وأسواق مكة بعامة في مجال نشر الأخبار بين العرب هو ما فعله النبي محمد ﷺ في بداية دعوته، حين قصد بعض هذه الأسواق ومنها عكاظ عارضاً نفسه ودعوته على وفود القبائل العربية ممن يحضرون فيها.

(٣) الأفغاني، سعيد. أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، مرجع سابق، ٣٤٤.

(٤) فكتور سحاب، *إيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف*. ط١، (بيروت: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٢م)، ٣٩١.

(٥) المرجع السابق، ٢٢٤.

(٦) الأفغاني، سعيد. أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، مرجع سابق، ٧٠.

(٧) المرجع السابق، ٣٤٧.

(٨) الكبيسي، حمدان. أسواق العرب التجارية، مرجع سابق، ٢٣.

(٩) الأفغاني، سعيد. أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، مرجع سابق، ٣٤٨.

(١٠) يظهر من بعض الشعر الذي قيل في هذا وجود أمكنة للغانيات به؛ انظر: الأفغاني، سعيد. أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، مرجع سابق، ٣٤٨.

(١١) الأفغاني، سعيد. أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، مرجع سابق، ٣٤٩ ـ ٣٥٥.

ثامناً ـ الأحوال العامة وقت ولادة المصطفى ﷺ:

أصبحت مكة المكرمة خلال القرن الممتد ما بين زعامة قصي وولادة النبي ﷺ أشبه بالمدينة العالمية التي يعمها السلام.

وكانت مكة المكرمة تعج بأنواع التجارة والوفود من كل البلدان في جزيرة العرب وخارجها، ويقطنها عدد من المعاهدين والموالي من غير العرب، ويعيش فيها الأرقاء من العبيد والإماء من كل بقاع الدنيا، شرقها وغربها[١]، ويؤمها التجار الأجانب من بلاد الفرس والروم والعراق والشام وغيرها، ويتداول الناس فيها جميع العملات[٢]، وتتوافر فيها منتجات عدد كبير من البلدان، كما يحترف فيها المهن أشخاص من هنا وأشخاص من هناك، ومنهم باخوم القبطي، النجار الذي استعمله أهل مكة المكرمة أثناء عمارتهم الكعبة المشرفة. وقد كان بعض هؤلاء على النصرانية[٣]، كما كان بعض النصارى قبل ذلك قد فروا بدينهم من اليمن ونجران إلى مكة المكرمة بعد حادثة الأخدود المعروفة، بينما لم يقصد مكة المكرمة من اليهود إلا أعداد يسيرة، أما غالبيتهم فقد اتجهوا إلى يثرب وخيبر[٤]. وقد عاش كل هؤلاء في أمن ودعة في رحاب مكة المكرمة، وقد ذكر ذلك ربنا سبحانه في القرآن الكريم بقوله: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا..﴾[٥].

في هذه الأثناء وبينما كانت مكة المكرمة تعيش في أوج ازدهارها الفكري والثقافي والاقتصادي[٦] ولد محمد عليه الصلاة والسلام في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي نحو عام ٥٧١م، وهو ذلك العام المسمى بعام الفيل نظراً لما جرى فيه قبل ولادة النبي ﷺ بنحو ٥٠ ـ ٥٥ يوماً[٧]، من الحادثة المشهورة لغزوة أبرهة الحبشي، ملك اليمن ـ آنذاك ـ لمكة المكرمة، حينما سار من هناك بجيشه الجرّار وأفياله الضخمة لمحاولة هدم البيت الحرام، وصرف زائريه وعمّاره عنه، رغبة في تحويل النشاط التجاري الضخم من حوله إلى كنيس كان قد بناه في صنعاء[٨] من الرخام المجزع وزخرفه بأحجار مموهة بالذهب، وسماه (القلّيس) نقلاً عن الكلمة اليونانية التي تقرأ (إكليزيا) بمعنى كنيسة[٩]. وقد اتخذ أبرهة من عبث رجل مكي من بني مالك بن كنانة داخل كنيسته[١٠] ذريعة لحملته لغزو مكة المكرمة وهدم البيت الحرام، ولكن تلك الحملة انتهت بنكسة شديدة على الجيش الغازي، كما أخبر الله سبحانه في سورة الفيل، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾[١١].

لم تؤثر تداعيات هذا الغزو في منطقة مكة المكرمة، بل مضى المكيون في محاولة تدعيم مواطن قوتهم ليس في نطاق منطقة مكة المكرمة فحسب، بل في جزيرة العرب كلها، فقد عملوا على تنمية الحس القومي العربي من خلال ربط الأمة بالبيت الحرام دينياً وثقافياً، وكذلك في محاولة ربطهم عرقياً من خلال ردهم إلى أب واحد هو إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام. في هذه الأثناء بعث الله نبي الهدى محمد بن عبدالله ﷺ مبشراً وداعياً إلى دين التوحيد، وإتمام مكارم الأخلاق، تلك الدعوة التي سرعان ما وحدت الأمة ليس في جزيرة العرب وحدها، بل في جميع أصقاع المعمورة. ومرة أخرى تنطلق من مكة المكرمة تباشير رسالة جديدة سرعان ما ملأت الآفاق علماً ونوراً.

(١) ثمة إشارة تذكر أن بعضاً من بني مخزوم، وكذلك بني العباس بن عبدالمطلب كانت لديهم إماء من بلاد اليونان؛ انظر: الأفغاني، سعيد. أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، مرجع سابق، ٧٦، ٧٧، حاشية ٢٨٨.

(٢) صالح، عبدالعزيز. تاريخ شبه الجزيرة العربية، مرجع سابق، ٢٠٦.

(٣) الأنصاري، عبدالرحمن. «الأحوال العامة للجزيرة العربية عند البعثة النبوية»، دراسات تاريخ الجزيرة العربية، مرجع سابق، ٥ ـ ١٨.

(٤) سلامة، عواطف. قريش قبل الإسلام، مرجع سابق، ٧٦، ٧٧.

(٥) البقرة، الآية: ١٢٥.

(٦) مؤنس، حسين. تاريخ قريش: مرجع سابق، ١٩١ ـ ١٩٧.

(٧) المباركفوري، صفي الرحمن. الرحيق المختوم، مرجع سابق، ٥١، ٥٢.

(٨) سلامة، عواطف. قريش قبل الإسلام، مرجع سابق، ١٩٢، ١٩٣.

(٩) رضا، فؤاد علي. أم القرى مكة المكرمة، مرجع سابق، ٢١٨.

(١٠) المرجع السابق، ٢١٨، ٢١٩.

(١١) سورة الفيل.